أضواء على:



عروبة القدس
عصر سلاطين المماليك
«٦٤٨-٩٢٣هـ - ١٢٥٠-١٥١٧م»

الدكتور / علي السيد علي
كلية التربية - جامعة القاهرة - فرع الفيوم

لم يكن المسلمون ليدعون الصليبيين يهنأون بالمدينة المقدسة التي تم لهم احتلالها يوم الجمعة الخامس عشر من شهر يوليو ١٠٩٩م، والتي كانت بمثابة درة التاج وواسطة العقد لدى المسلمين. كما أنهم لم يكونوا ليغضون الطرف عن وجود الكيان الصليبي فوق الأرض العربية في فلسطين، ففي السابع والعشرين من شهر رجب عام ٥٨٣هـ الثاني من أكتوبر عام ١١٨٧م دخل صلاح الدين الأيوبي مدينة بيت المقدس فاتحاً بعد معركة حطين الشهيرة؛ وكان المنتصرون إنسانيين إلى أقصى حد، فبينما خاض الصليبيون في دماء ضحايا غدرهم عندما استولوا على المدينة المقدسة قبل ثمان وثمانين سنة، لم يجرح المسلمون حين استردوا بيت المقدس مدنياً واحداً ولم ينهبوا أي مبنى، بل أخذت الدوريات الإسلامية بأوامر من صلاح الدين تطوف شوارع المدينة وترابط على بواباتها لمنع أي اعتداء على الصليبيين وهم يغادرون المدينة (١).

وأدت اتفاقية صلح الرملة بين صلاح الدين الأيوبي والملك ريتشارد قلب الأسد قائد الحملة الصليبية الثالثة عام ١١٩١م إلى حالة من الاستقرار النسبي في المدينة، إلا أن هذا الاستقرار النسبي لم يدم طويلاً في عهد خلفاء صلاح الدين، بسبب الصراعات فيما بينهم حول العرش، وتفريط بعض أبناء البيت الأيوبي في المدينة، بحيث ظلت كالكرة تتلاقفها أيدي المسلمين تارة وأيدي الصليبيين تارة أخرى، حتى تم استردادها نهائياً سنة ١٢٤٤م على يد السلطان الصالح نجم الدين أيوب. ومع هذا فقد عاش سكان أهل المدينة وهم لا يأمنون على أنفسهم وحاضرهم ومستقبلهم، وفي مواجهتهم على الساحل تقوم مملكة صليبية حاضرتها عكا، تترقب اليوم الذي تعود فيه عقارب الساعة إلى الوراء لتحيي مجدها القديم على أرض بيت المقدس، هذا فضلاً عن وجود العديد من الإمارات، والمدن، والقلاع الصليبية المنتشرة في أنحاء بلاد الشام، والتي كان أهلها جميعاً يتطلعون إلى كنيسة القيامة في بيت المقدس، ويتحينون الفرصة تلو الأخرى لاستعادة المدينة.

وفي ظل هذا القلق، وعدم الاستقرار رغب كثير من المسلمين عن الحياة فيها، الأمر الذي دفع «القزويني» في النصف الأول من القرن السابع الهجري - الثالث عشر الميلادي أن يردد نفس العبارة التي سبق أن ذكرها «المقدسي» قبل ذلك بقرن ونصف تقريباً من أن مدينة بيت المقدس «قليلة العلماء كثيرة النصارى». وعن هؤلاء النصارى (٢) فقد كانوا حوالي عشرين ألفاً من النصارى العرب الأرثوذكس، مع حوالي عدة مئات من الأرمن الذين سمح لهم صلاح الدين بالبقاء فيها. إلى جانب ما تشير إليه المصادر المعاصرة من أنه حضر مع صلاح الدين زهاء عشرة آلاف من فقهاء المسلمين، الذين ربما فضلوا الإقامة في المدينة بعد الفتح (٣). أما بالنسبة لليهود في المدينة، فمن المعروف أن الصليبيين لم يبقوا بالمدينة يهودياً واحداً، بل لقد عانى اليهود من الاضطهاد الصليبي في مدن فلسطين لدرجة هروب كل من تبقى منهم ناجين بحياتهم إلى أماكن أكثر أمناً، فلقد ذكر الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي زار فلسطين عام ١١٧٣م أنه رأى مدن فلسطين تكاد تكون خالية من اليهود، وأن مدينة بيت المقدس كان بها مئتان من اليهود الذين يسكنون في أحد أركان المدينة، تحت برج داود، أما أغلب سكانها فقد كانوا من المسيحيين، وأن بيت لحم لم يكن بها سوى اثنى عشر يهودياً، كما أنه لم يذكر وجود أي يهودي في مدينة الخليل، أما في بيت جبريل فقد كان هناك ثلاثة فقط من اليهود، والرملة كان بها ثلاثة فقط من اليهود، كما أن يافا كان بها يهودي واحد فقط، وأنه مر على بعض مدن فلسطين فلم يشاهد بها يهودياً واحداً (٤).

عروبة السكان :

في العصر الذي نحن بصدده وهو العصر المملوكي حدثت طفرة كبيرة في التركيبة السكانية ولكن إذا نظرنا إلى أغلبية السكان قبل ذلك العصر وهم من المسيحيين، فقد كانوا

من النصارى العرب الأرثوذكس والمخلصين للحكم الإسلامي، والمعروف أن هذه الطائفة قديمة العهد بالمدينة، وكانت موجودة قبل الفتح الصلاحي للمدينة، وقد وعد أبناؤها صلاح الدين بمساعدته وفتح أبواب المدينة عندما حاصرها، كما أن هذه الطائفة كانت تابعة للكنيسة البيزنطية، وهم نفس الملكانية الذين وجدوا في مصر، وقد كانوا من أصل عربي ولاشك أنهم استفادوا من الفتح العربي للمدينة عقب طرد الصليبيين منها، حيث استعادوا هيمنتهم على الأماكن المسيحية المقدسة (٥). إلى جانب بعض جماعات من السريان، والأقباط، والروم الكاثوليك، والفرنسيسكان الذين سمح لهم صلاح الدين بالبقاء في ديارهم في جبل صهيون لاستقبال الحجاج الأوروبيين.

أما عن اليهود، فقد سبق أن رأينا ما ذكره بنيامين التطيلي عنهم، يؤكد ذلك ما ذكره الرحالة اليهودي بتاحيا الذي زار القدس قبل الفتح الصلاحي لها بعدة سنوات قلائل، حيث زارها سنة ١١٨٠م ووجد بها يهودياً واحداً (٦). وبفتح صلاح الدين أخذت بعض أعداد من اليهود العرب تفد إلى المدينة، من عسقلان التي دمرها صلاح الدين، كما أن بعض يهود المغرب فروا إليها سنة ١١٩٨م، كما أتت إليها أعداد ضئيلة جداً من المهاجرين من فرنسا سنتي ١٢١٠م، ١٢١١ (٧)، بالإضافة إلى بعض اليهود من ألمانيا، وفي سنة ١٢١٥م فإن صموئيل بن سيمون وهو يهودي وصل إلى فلسطين وذكر أن أكثر من ٣٠٠ من الربابنة من جنوب إنجلترا وفرنسا ذهبوا إلى الأرض المقدسة سنة ١٢١١م. لكن من الواضح أن هؤلاء اليهود لم تطب لهم الإقامة في القدس، فالرحالة اليهودي نحما نيدس الذي زار القدس عام ١٢٦٧م قد وجد بها اثنين فقط من اليهود، وكانا يعملان بالصباغة وهما أخوان (٨). وإن كانت المراجع اليهودية تفسر ذلك في ضوء ما تعرضت له بلاد الشام من غزوات المغول (٩) بالرغم من أن المغول لم يصلوا إلى المدينة أبداً. بينما تفسرها بعض المراجع الأخرى بأن كثيراً من اليهود اعتنقوا الإسلام نظراً للتسامح وحسن المعاملة التي لقيها هؤلاء من الحكام المسلمين، بحيث لم يمض نصف قرن على عودة المدينة للحكم الإسلامي إلا وكان عدد اليهود بالقدس ضئيلاً لهذا السبب (١٠).

وصحب بزوغ نجم دولة سلاطين المماليك عام ٦٤٨هـ - ١٢٥٠م في مصر، فترة عدم استقرار في أوضاع القدس حتى عام ٦٥١هـ - ١٢٥٣م حيث آل جنوب فلسطين بما فيه لحكم المماليك، وإن كان السلطان عز الدين أيبك قد تنازل عنها عام ٦٥٤هـ - ١٢٥٦م للناصر يوسف الأيوبي صاحب دمشق. وفي أثناء الغزو المغولي ظهر تقاعس البيت الأيوبي في الدفاع عن بلاد الشام، وكانت معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م وما ترتب عليها من تأكيد دور دولة سلاطين المماليك كقوة ضاربة مدافعة عن العروبة والإسلام، وخضوع بلاد الشام ومنها بيت المقدس لحكمهم، وتجنيب المدينة المقدسة الكثير مما لحق بغيرها من مدن بلاد الشام من دمار وفناء وإحراق وانتهاك لمقدسات العرب

والمسلمين وبيوتهم، مثلما أصاب حلب ودمشق وغيرهما من المدن الشامية (١١) وكانت القدس بما لها من مكانة مقدسة لدى المسلمين جميعاً تمثل ركيزة هامة كان على سلاطين المماليك أن يولوها من الرعاية والعناية ما يبرزون به الجانب الديني من سياستهم، وبما يعطي انطباعاً بأن قيام دولة سلاطين المماليك في الحكم ليس ضرورة لحماية البلاد والعباد من الأخطار الخارجية المتمثلة في المغول والفرنج فحسب، بل أيضاً لرفع راية الإسلام عن طريق إحياء شعائره ورعاية مقدساته، هذا بالإضافة إلى أن تلك الرعاية لم تكن قاصرة على سلاطين المماليك وحدهم، بل شاركهم فيها كثير من الأمراء.

كما أن عنايتهم بمدينة بيت المقدس لم تكن قاصرة على المؤسسات الدينية، بل شملت المؤسسات العلمية والخيرية والاجتماعية لتوفير أسباب الحياة الطيبة في المدينة وتنشيط الحياة فيها، بعد أن تحررت من الخوف الذي خيم عليها نحواً من قرنين من الزمان. فتمتعت المدينة لأول مرة منذ عدة قرون بالاستقرار التام، وغدت مركزاً حضارياً هاماً في الدولة المملوكية مما ساعد على نموها السكاني. ومما ساعد على ازدهارها السكاني كثرة الهجرة من العراق وبعض البلدان الأخرى، تلك الهجرات التي نجمت عن المذابح الرهيبة التي ارتكبها المغول في البلاد التي فتحوها، إلى جانب أن هذه الهجرات قد استمرت حتى بعد استقرار المغول في البلاد التي فتحوها وخاصة العراق، فإن الكثيرين من المسلمين الذين رغبوا في العيش تحت ظل الحكم الإسلامي تركوا العراق واتجهوا إلى بلاد الشام ومصر، إما طلبا للعلم أو أنه قد جذبهم مدى ما تمتع به سكان تلك الجهات من رخاء تحت حكم المماليك. ويؤكد لنا مؤرخ القدس أن كثيراً ممن هاجروا من الشرق إلى بلاد الشام قد استقروا في القدس على اعتبار أنها مركز ديني هام، وباشروا فيها كثيراً من الوظائف الدينية الهامة (١٢). ولم تكن الهجرة إلى بيت المقدس مقصورة على أهل المشرق، بل إننا نسمع طوال عصر سلاطين المماليك عن كثير من علماء المغرب الذين استقروا في القدس وتولوا بها مناصب هامة، كذلك كان للظروف السياسية التي سادت بلاد المغرب، سواء الفتن والاضطرابات واختلاف ملوكها، أو حركة الاسترداد التي قام بها الغرب الأوروبي في الأندلس كلها كانت من العوامل التي شجعت على تدفق أعداد كبيرة من المغرب إلى القدس في تلك الفترة من حياة المدينة (١٣).

كذلك نعمت المدينة بالاستقرار الاقتصادي والذي غالباً ما يؤدي إلى تزايد عدد السكان، ففي عهد دولة المماليك الأولى أو البحرية، والذي دام حوالي مائة وثلاثين عاماً تمتعت المدينة بالاستقرار، ولم يحدث ما يسبب ارتفاع الأسعار أو اضطراب الأحوال الاقتصادية، كما أن المعاملات المالية كانت مستقرة في أوزانها وقيمتها وكميتها من حيث الدينار والدرهم، واستخدمت في صكها سبائك ممتازة من المعادن وكان من نتيجة ثبات العملات والنظم المالية أن حدث ارتفاع في أسعار الحبوب ونقصان في الأجور نتيجة لتزايد عدد

السكان، فعندما يزيد عدد الأيدي العاملة، فإن الأجور لابد وأن تقل [١٤].

والحقيقة أنه لم تصادفنا في المصادر والمراجع التي اطلعنا عليها ما يساعدنا على تقدير عدد المسلمين في بيت المقدس في تلك الفترة، إلا أننا نستطيع القول إنهم كانوا يشكلون أغلبية السكان، وتجب الإشارة إلى أن القطاع الإسلامي قد شمل العديد مما يمكن أن نسميهم تجاوزاً عناصر سكانية، حيث ضم المماليك، والقبائل العربية، والمغاربة، والسكان العرب الذين نزحوا إليها من كثير من مناطق العالم العربي، والإسلامي [١٥].

أصـــول السكان :

وعن أصول سكان بيت المقدس في العصر المملوكي، فالمصادر التاريخية التقليدية مليئة بألقاب النسبة التي تحدد أصل السكان، كما أنها توضح أن المواطنة في تلك الفترة من العصور الوسطى كانت تكتسب بالإقامة، كأن يقال فلان «الدمشقي ثم المقدسي»، أو يقال فلان «البغدادي نزيل القدس»، أو أن يقال فلان «المصري المقدسي» فلقب النسبة الأول يعني أن صاحبه ولد في دمشق، أو بغداد ، أو مصر أو غيرها ثم انتقل إلى القدس وعاش بها وأمضى بقية حياته فيها. أما إذا اقتصر لقب النسبة على «المقدسي» فقط فمعنى هذا أنه ولد وعاش في القدس وربما مات بها. ولدينا من هذا النوع مئات الإشارات، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر أن ابن حجر العسقلاني في واحد فقط من كتبه قد رصد لنا أكثر من مائة من العلماء المقادسة الذين حمل كل منهم لقب «المقدسي» وقد عاشوا في القدس وتولوا بها كثيراً من المناصب الهامة في ذلك العصر [١٦]. كما تذكر مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف - والتي تغطي الفترة الزمنية من عام ٦٠٤هـ - ١٢٠٤م إلى ٨٦٦هـ - ١٤٦٧م والمصورة على ميكروفيلم، توجد منه نسخة في المتحف الإسلامي في القدس، ونسخة ثانية لدى مكتبة الجامعة الأردنية، ونسخة ثالثة لدى معهد الدراسات الإسلامية بجامعة ماكجل بكندا - أصول السكان الذين وفدوا إلى القدس في العصر المملوكي، وأنهم قدموا من بلدان عربية تحت الحكم العربي سواءً من بلاد الشام، أو مصر، أو المغرب وغيرها، فعلى سبيل المثال جاءت بها ألقاب النسبة مثل «العنتابي» نسبة إلى مدينة عينتاب والتي كانت خاضعة للحكم المملوكي، وهي الآن جنوبي تركيا بالقرب من حلب وتدعي اليوم غازي عينتاب، ومنهم «الكركي» نسبة إلى الكرك في الأردن، ومنهم «الأخلاطي» نسبة إلى مدينة أخلاط في تركيا حالياً، «التونسي» نسبة إلى تونس من بلاد المغرب العربي، و«الدمشقي» نسبة إلى مدينة دمشق، و«المرداوي» نسبة إلى مرْدا من قرى نابلس في فلسطين، «والحلبي» نسبة إلى مدينة حلب، و«العجلوني» نسبة إلى عجلون في فلسطين، و«الصفدي» نسبة إلى مدينة صفد، و«الصفوري» نسبة إلى

صفورية، و«الشوبكي» نسبة إلى الشوبك في الأردن، و«البصراوي» نسبة إلى بصرى من أعمال حوران ببلاد الشام، و«الحموى» نسبة إلى مدينة حماه، و«المعاني» نسبة إلى مُعان في الأردن اليوم (١٧).

كذلك تتواتر ألقاب النسبة في المصادر المعاصرة مثل «الرملي» نسبة إلى مدينة الرملة بفلسطين، و«الصالحي» نسبة إلى الصاحلية وهي إحدى ضواحي دمشق في ذلك العصر، و«السويداوي» نسبة إلى السويداء وهي قرية من أعمال حوران بسورية، و«الحوراني» نسبة إلى حوران، و«الباعوني» نسبة إلى باعون بالقرب من عجلون من عمل صفد، و«المعرّى» نسبة إلى معرة النعمان بسورية، و«الخليلي» نسبة إلى مدينة الخليل بالقرب من بيت المقدس، و«الحسباني» نسبة إلى حسبان وهي إحدى القرى في نابلس، و«النابلسي» نسبة إلى نابلس، و«الغزي» نسبة إلى مدينة غزة، و«الزرعي» نسبة إلى إحدى قرى نابلس، و«التدمري» نسبة إلى مدينة تدمر بسورية، و«المنفلوطي» نسبة إلى منفلوط في صعيد مصر (١٨).

والحقيقة أن الباحث في موضوع عروبة القدس في العصر المملوكي، لابد أن يضع نصب عينيه حقيقة كبرى، هي أن العالم في العصور القديمة والوسطى انحصر في ثلاث قارات هي : أوروبا، وآسيا، وأفريقيا، ونظرة سريعة إلى خريطة العالم عندئذ توضح أن مربط هذه القارات الثلاث كان العرب وبلاد العرب، وخاصة بعد أن ظهر الإسلام، ونجح المسلمون في حركتهم التوسعية، وقامت على أكتاف العرب دولة كبرى امتدت من المحيط - أو بحر الظلمات غرباً - إلى حدود الصين والهند وإقليم الخليج شرقاً. وبعبارة أخرى، فإن الدولة العربية الإسلامية استوعبت في منطقة الشرق الأدنى أجزاء واسعة في شمال أفريقيا وجنوب أوروبا، كما امتدت شرقاً لتضم أجزاء واسعة في جنوب آسيا وغربها ووسطها، ومنها القدس (١٩).

سيادة الشريعة الإسلامية :

وإذا كانت هوية أي بلد يمكن تحديدها من خلال قوانينه التشريعية، فإن المصادر التاريخية والوثائقية تؤكد على عروبة القدس من هذه الناحية، فعلى الرغم مما يقال من أن أهل الذمة من مسيحيين ويهود في بيت المقدس كانت لهم أحكامهم الخاصة لهم، إلا أن هذه الأحكام كانت خاصة ببعض النواحي الدينية، أما ما يتعلق بالقانون المدني العام أو الشئون الدنيوية فقد كانت تسري عليهم أحكام الشريعة الإسلامية مثلهم مثل المسلمين تماماً. بل إنهم كانوا سعداء بها، وخير دليل على هذا ما يرويه لنا أحد اليهود الذين هاجروا إلى القدس من إسبانيا سنة ١٣٣٣م، وهو اسحق بن يوسف بن شلو في رسالته

إلى والده يقـول فيـها : «ويعـيش اليهـود هنا في سعـادة وطمأنينة كل بـحسب وضـعه وموارده وذلك لأن الحكومة عادلة ...» (٢٠).

كـما تشـير المصـادر إلى أن القانون والعـدل كـانا فوق الجـميع، فـفي سنة ٨٥٠هـ - ١٤٤٦م على سبـيل المثال، أرسل رهبان الفرنسـيسكان رسالة إلى السلطان جـقمق ذكروا فيها أن شخصاً من بيت لحم وضع يده على قطعة أرض ملاصقة للدير ومن جملة حقوقه، كانوا ينتفعون بها في زراعة ما يلزمهم من الخضروات، فأمر لهم السلطان بتسليم الأرض لرئيس الرهبان (٢١). هذا إلى جانب ما تشيـر إليه بعض المصادر سنة ٨٧٨هـ - ١٤٧٣م من أنه حدث بين المسلمين واليهود حـول دار واقعة بين مسجد للمسلمين وكنيـسة لليهود، انتـهى هذا الخـلاف بهـدم الكنيس على أنه مُـحْـدث، ولما رُفِعَ الأمـر إلى السلطان، أصـدر مرسومـه إلى نائبه في القدس باعادة بنائها بعـد هدمها وذلك في سنة ٨٧٩هـ - ١٤٧٤م، وعاقب المتسببين في ذلك الهدم وهم عالم القدس البرهان الأنصاري، وقاضيها الشهاب بن عبية وغيرهما الذين حُملوا إليه، وضُرب بعضهم بين يديه (٢٢).

أما فيـما يتعلق بقانون الميراث العـام، فقد كان الشرع الإسـلامي هو المصدر الأساسي المعول عليه، من ذلك مثلاً أنه منذ سنة ٧٠٠هـ في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون كان كل سكان المـدينة المقدسة من مـسلمين ومسـيحيـين ويهود يخضـعون في مـواريثهم لديوان الحشرية، فـإذا مات منهم أحد فإن ورثته كانوا يثـبتون ما يستحقـونه من ميراث «بمقتضى الشرع الشريف» وإذا أثبـتوا ما يستحقونه يُعطون بمقتـضاه، ويُحمل ما فضل بعد ذلك لديوان بيت المال، ومن مات منهم ولاوارث له يستـوعب إرثه، حُمل موجوده لبيت المال (٢٣). بل وحتى اليـهود الذين كـانوا من أصل أوروبي، طبق عليهم الشـرع الإسلامي، فالوثيقة رقم ١٩٧ والمؤرخة في ٢٩ صفر سنة ٧٩٥هـ من وثائق الحرم القدسي الشريف، تذكر أن أحد اليهود قد كان ساكناً في القدس الشـريف، وعندما أحس بضعفه ومرضه فقد أقر في وثيقة حصر موجوداته التي قام بحصرها أحد رجال ديوان المواريث الحشرية بناءً على طلب تقدم به هذا اليهودي ويدعي اسحق بن شمويل بن يوسف، وبعد عملية الحصر، أقر بأن المـستحق إرثـه زوجته سـمحـة ابنة يهودا الإفـرنجيـة الحاضـرة معه بـالقدس الشريف ووالدته دوسا بنت سلتين الإفرنجية الحاضرة معه بالقدس الشريف كذلك (٢٤).

كما تدلنا الوثيقة رقم ٥٠٣ بتاريخ ٤ ذي القعدة سنة ٧٤٥هـ وموضوعها حصر أعيان بقصد الإرث، أن المسيحـيين كانوا أيضاً يقومون بتسجيل مـواريثهم لدى القاضي الشرعي في القدس الشـريف، فقـد جاء فيـها ما يلي : «حـصل الوقوف على رجل يسـمى راشد ابن هارون بن سـمعـان النصراني الشـوبكي بدير العـامود بالقـدس الشريف والذي أقـر أن موجوده ومـستحق إرثه زوجته مـريم بنت فريح ابن شند النصرانية الشـوبكية،وبناته ست الأهل المرأة الكامل، وست النضر الرضـيعة وشقـيقه غانم الغائب بـالشوبك. وأقر أن

في ذمته صداق زوجته مريم من الذهب ستة وثلاثون ديناراً صوريا، وذلك حسب الإذن الكريم العالي المولوي الشرفي قاضي المسلمين بالقدس الشريف، أدام الله ظلاله...» ومن الملاحظ أن الوثيقة بدأت بـ«الحمدلله رب العالمين» وانتهت بـ«حسبنا الله ونعم الوكيل» (٢٥).

وفيما يتعلق بالسياسة الشرعية وأمور الحسبة، فكانت تجري وفق الشرع الإسلامي، فلدينا وثيقة تضمنت إشارة فريدة من نوعها، تفيد أنه كان من حق أفراد المجتمع في بيت المقدس ممثلين في المحتسب أن يجبروا من يخل بمهنته - مهما كان دينه - أن يترك هذه المهنة، ويبحث له عن عمل آخر، فالوثيقة رقم ٦٣٦ والمؤرخة في ٢٦ جمادي الأول سنة ٧٩٦هـ تفيد أن ثلاثة من اليهود كانوا يشتغلون في القصابة، وأخلوا بشروط المهنة، ولذا طُلبوا عند القاضي، وتعهدوا بعدم الذبح لا لهم ولا للمسلمين، وإن خالفوا تعهدهم عوقبوا، ودفعوا عشرة آلاف درهم كغرامة (٢٦).

عدم التعصب :

وينبغي أن نشير إلى أن مدينة القدس لم تعرف التعصب طوال عصورها الإسلامية سوى حين احتلها الصليبيون، ومات التسامح في بلد التسامح. ولم تعرف العنف والدمار سوى حين اقتحمها القادمون من أوروبا، ثم عاد السلام حين استعادها العرب تحت راية صلاح الدين. وعادت مدينة الحب والتسامح تبني الحضارة وتزرع الثقافة وتعلم الإنسان، إلى أن كان زمن تشرذم فيه العرب، وتباغضوا، وتنافروا فسقطت مدينة السلام في أيدي أعداء السلام. ومرة أخرى عاد التعصب لمدينة التسامح والسلام، وداست أقدام الصهاينة تراب المدينة المقدس ولاتزال، ولأن الحب والسلام ينتصر دائماً في النهاية، فسوف تعود مدينة السلام إلى سابق عهدها وسيرتها الأولى.

والوثائق لا تكذب، وخصوصاً تلك التي تتصل اتصالاً مباشراً بحياة البسطاء من الناس، ونمط معيشتهم وأسلوب حياتهم، وهم سكان المدينة المقدسة من مسلمين ويهود ومسيحيين، وأنه لم تكن هناك أحياء يهودية أو مسيحية صرفة، وصحيح ما تشير إليه بعض المراجع عن وجود حي لليهود سمي باسمهم حي اليهود أو حارة اليهود، وإليها نسب أحد أبواب القدس المسمى بباب حارة اليهود الذي يصل ما بين شارع داود إلى سور المدينةوليس ببعيد عن بوابة صهيون (٢٧). لكن مجموعة وثائق الحرم القدسي الشريف تؤكد أن ذلك الحي وغيره من الأحياء المسيحية قد سكنها وامتلك فيها المسلمون بيوتاً كثيرة، فالوثيقة رقم ٣٥ والمؤرخة في ٤ ربيع الآخر سنة ٧٧٨هـ تذكر «حارة النصارى» وتذكر أن أحد المسلمين كان يملك بها داراً، وبعد أن انتهت الوثيقة من وصف تلك الدار

وحدودها وموقعها ومساحتها وما إلى ذلك من أمور تقول : «وانتقلت الدار المذكورة بعده إلى مستحقي إرثه وهم أولاده لصلبه اسمعيل وخديجة وفاطمة وزوجته فاطمة بنت آدم» [٢٨]. كما تذكر الوثيقة رقم ٦٣٥ المؤرخة في ١٨ محرم سنة ٧٩٣هـ أن أحد المسلمين ويدعي الحاج حسن العجمي كان قد سكن بحارة المشارقة التي كانت تقع شمال باب حطة، وكانت هذه الحارة أيضاً يسكنها كثير من المسيحيين [٢٩]. كذلك جاء في الوثيقة رقم ٤٦١ بتاريخ ١٥ جمادي الآخرة سنة ٧٩٦هـ أن كثيراً من المسلمين سكنوا هذه الحارة وهي حارة المشارقة، وكان لها زوايا وأوقاف حسبوها على أعمال الخير المختلفة [٣٠].

كما وجدت «الخانقاه الصلاحية» نسبة إلى صلاح الدين الأيوبي، وسط عدة منشآت مسيحية من أديرة مثل دير الكرج المعروف بتفاحة، ودير الكرج المعروف بالسنكل ودور للقسيسيين، هذه الخانقاه وقفها السلطان صلاح الدين على السادة الصوفية، وجعل الدار المعروفة بدار البطرك رباطاً لهم، كذلك كان هناك ربع كبير هو عبارة عن مجمع سكني ضخم سكنه كثير من المسلمين من أرباب الحرف المختلفة، ومارسوا فيه كثيراً من مهنهم سواء في غرفهم أم في الحوانيت الموجودة أسفل ذلك الربع [٣١].

كما أن الوثيقة رقم ٣٦٧ بتاريخ ١٦ رمضان سنة ٧٤٣هـ جاء بها ما يؤكد أن حارة النصارى سكن فيها وامتلك فيها كثير من المسلمين بيوتاً، بدليل أن عمر بن موسى بن محمد الصلني اشترى قطعة أرض بمبلغ ٣٠ درهما ليبني عليها بيتاً في حارة الجوالدة وهي ذلك الجزء من حارة النصارى القريب من باب الخليل وقرب باب جالود [٣٢].

كما أن الوثائق التي بين أيدينا تؤكد على أن بيوت اليهود كانت تتجاور مع بيوت المسلمين والمسيحيين في كل مكان، وعاش المسلمون مع مستأجرين يهود في المنازل التي يملكها مسيحيون، وعلى الصعيد الاجتماعي فقد شارك اليهود والمسيحيون المسلمين في القدس حياتهم، سواء من حيث العادات، والتقاليد، والقيم والمثل التي كانت تحكم مجتمع بيت المقدس في ذلك العصر. أو من حيث مساهمتهم في النشاط الاجتماعي عامة [٣٣]. كما تجاورت المؤسسات الدينية لأبناء الطوائف الدينية المختلفة وكما سبقت الإشارة بذلك.

ليس هذا فحسب، بل إن الوثيقة رقم ٣٢٥ بتاريخ العشر الأوسط من شهر ذي القعدة سنة ٧٩٥هـ تفيد أن أهل الذمة كانوا كثيراً ما يلجأون إلى كبار مشايخ المسلمين للتوسط لهم لدى السلطات الحاكمة، أو لرفع أي ظلم قد يقع عليهم، فهذه الوثيقة عبارة عن شكوى رفعها شيخ المغاربة محمد بن عبدالوارث المالكي إلى كافل السلطنة في دمشق، وملخصها أن يهودياً مات في مدينة القدس، فسارع الوالي وهو المسئول عن الشرطة إلى الختم على بيته «أي الحجز»، تمهيداً لنقل موجودات بيته من تركته إلى بيت المال غير مدقق بالطريق الشرعي بوصية الرجل أو البحث عن ورثته، وعند ذلك جاء بعض اليهود إلى شيخ

المغـاربة عله ينجح في رفع ختـم الوالي، حيث أن اليـهودي الميت ترك وصـية شـرعيـة، ولكنهم لا يستطيعون إثباتها حيث أن المسـتحق لإرثه كان في السجن عندما مات اليهودي ويتعذر معه إثبات الوصية، ولما لم يسـتجب الوالي لذلك، حرر شيخ المغاربة رسالته إلى كافل السلطنة في دمشق، وطلب إليه أن يصدر أوامره بمرسومين إلى القاضي الشرعي في القدس الشريف، وإلى نائب السلطنة، لينظرا هذه الشكوى، وينصفا اليهودي. وتدلنا هذه الوثيقة على مدى الحرص الذي كانت توليه الدولة المملوكـة لتحقيق العدالة وحماية أهل الذمة عند تطبيق قوانين ديوان المواريث الحشرية (٣٤).

عـروبـــة الآثـــار :

آثار أي أمة جـزء أصيل من تراثها العـام، ينقله الخلف عن السلف، وتتوارثه الأجـيال المتعاقبة. وإذا كانت الأمم المتقدمة اليوم هي أكثر الأمم محافظة على آثارها وتراثها، فإن ما تفعله اليوم إسرائيل من هدم لكثير من الأحيـاء والمباني العريقة في القدس لهو دليل على محـاولة طمس عروبة القدس. وإحـلال بعض المباني الحديثـة محل تلك المباني العـريقة لطمس هذا السـجل الحافل بالأحـداث التاريخـية، ولضم الأواصـر النفسـية بين الأجـيال الجديدة من عرب القدس وتراثهم القديم. ولنأخذ على ذلك مثالاً بالمقابر والترب الإسلامية في القدس وهي مصدر من مصادر العلم والثقافة والتاريخ، ومستند يدل على تلاحم أبناء هذه المدينة المقدسة مع مدينتهم في حياتهم ومماتهم، ودليلاً على عروبتها.

ففي القدس – خاصة داخل سور البلدة القديمة – ترب وأضرحـة ومقامات كثيرة، وقد اتخذت مدافن لشـخصيات عديدة بعـضها معروف والبـعض الآخر طواها الزمن، والمدافن في القدس على عدة أنواع : التـرب، وهي مبان ذات غرف متعددة غـالباً بناها أشخاص في حيـاتهم ليـدفنوا فيـها، أوبنيت لهم بعـد وفاتهم. وكـثيـر من هذه الترب تشكل جـزءاً من مدرسة أو مسجـد أو زاوية أو من مجمع فيه مدرسة ومسجـد وسبيل ... خصص للضريح فيه ركن خاص. ومن أمثلة هذه الترب السعدية «دار الخالدي». وقف هذه التربة ودفن بها الأميـر سعد الديـن مسعـود بن الأمير بدر الدين سـنقر بن عبـدالله الجاشنكيـر الحاجب بالشام المحروسة في دولة الناصر مـحمد بن قلاوون. وتاريخ الوقف سنة ٧١١هـ فعلى الجـانب الشمـالي من باب السلسلة، وفي جـزء معـقود من الطريق هناك بوابة صـغيـرة تحيط بها زخارف من الفسيفساء الرخامية التي عدا عليها الزمان. وإلى الشرق من البوابة هنـاك شبـاكـان لهمـا شعريتـان ويحيط بـهمـا عـامودان مـن الـرخام، عليـهما تاجـان مـن جبهـتيهما العليا والـسفلى. يدعي المبنى حالياً «دار الخالدي» وهو مـهمل وفي حالـة سيئة (٣٥).

ومنها التربة الطشتمرية : وهي بناء كبير يتألف من مدرسة، ومكتب لتعليم الأطفال، وسبيل ماء، فضلاً عن التربة أو الضريح. ويتألف البناء كله من حوالي عشرين غرفة وقاعة، وله مدخل جميل يفتح على طريق باب السلسلة وتتكون جوانبه من ثمانية مداميك مبنية من الرخام الأحمر والأبيض وتعلوه مقرنصات مختلفة الأشكال. ويقع المدخل في وسط واجهة البناء... وعلى الواجهة شريط كتابي نصه كما يلي:

«أمر بإنشاء هذا المكان المبارك المقر الأشرف السيفي طشتمر العلائي بتاريخ سنة أربع وثمانين وسبعمائة».

كان الأمير طشتمر بن عبدالله العلائي من الأمراء المرموقين في دولة المماليك البحرية، وتولى العديد من المناصب من بينها نيابة السلطنة في مصر والشام وصفد وحماة، وكذلك أتابكية العسكر، أي أنه كان قائداً عاماً للجيش المصري، ثم أقام بالقدس سنة ٧٨٣هـ وشرع في بناء المدرسة والضريح، وتوفي في شعبان سنة ٧٨٦هـ ودفن في تربته بعد سنتين من بنائها، كما دفن ابنه فيها قبله بسنة، هذه التربة تطل على طريق باب السلسلة.

والتربة الكبكية : تقع هذه التربة على بعد حوالي ١٠٠ متر إلى الشمال الشرقي من بركة ماملا، في مقبرة ماملا كبرى مقابر بيت المقدس الإسلامية وأوسعها شهرة بالقرب من باب الخليل، والتي ظلت تستعمل كمقبرة بلا انقطاع حتى سنة ١٩٢٧م، عندما أمر المجلس الإسلامي الأعلى بوقف الدفن فيها، بعد أن اتسع عمران القدس، وأصبحت المقبرة في وسط المدينة. وتحدث مجير الدين عن الكبكية فقال : «وبمقبرة ماملا قبة محكمة البناء نسبتها للأمير علاء الدين أيدغدي بن عبدالله الكبكي المدفون بها ووفاته يوم الخميس خامس شهر رمضان سنة ثمان وثمانين وستمائة». والأمير علاء الدين أيدغدي كان من أكابر الأمراء، عمل في عهد الظاهر بيبرس حاكماً على صفد ثم على حلب، ثم تولى ناظر الحرمين إلى أيام قلاوون. وهناك على لوحة رخامية فوق بابها نقش يتألف من خمسة أسطر بالخط النسخي المملوكي هذا نصه :

١ - بسم الله الرحمن الرحيم وصلواته على نبيه محمد وآله.

٢ - هذه تربة العبد الفقير إلى الله تعالي الأمير علاء.

٣ - الدين ايدغدي بن عبدالله المعروف بالكبكي توفي.

٤ - في يوم الخميس الخامس من شهر رمضان المعظم سنة.

٥ - ثمانية وثمانين وستماية تغمده الله برحمته وأسكنه جنته (٣٦).

وقد تحول معظم مقبرة ماملا بعد احتلال ١٩٤٨م إلى طرق ومواقف سيارات (٣٧).

ومن المقابر مقبرة باب الرحمة خلف سور الحرم الشرقي مباشرة، وهي مقبرة عريقة، وفيها قبور عدد من الصحابة منهم شداد بن أوس الذي سكن القدس وتوفي فيها سنة ٥٨هـ وعبادة بن الصامت أول قاض عربي مسلم في فلسطين، سكن القدس وتوفي بها سنة ٣٤هـ وكان في مقبرة باب الرحمة كذلك كثير من الترب والأضرحة التي زالت الآن وعفت آثارها. وشواهد القبور الأثرية نادرة، بل تكاد تكون معدومة. وفي المتحف الإسلامي في القدس لوحة من الحجر الجيري نقشت عليها الكلمات التالية بالخط النسخي المملوكي :

١ - .... بإنشاء عمارة هذه التربة المباركة.

٢ - ... السيفي قانصوه اليحياوي كافل المملكة.

٣ - ... (ر) جب الفرد سنة أربع وتسعين وثمانمائة.

ولم يعد لهذه التربة من أثر الآن، ولكن أنقاضها كانت ظاهرة في أواخر القرن الماضي.

وفي مقبرة باب الرحمة تم العثور أثناء توسعة الطريق التي تمر أمام كنيستي الجسمانية وستنا مريم على قبر مجير الدين الحنبلي مؤرخ القدس في مكان لا يبعد سوى بضعة أمتار عن كنيسة ستنا مريم فنقلوا العظام من مكانها إلى مكان آخر وحفروا له قبراً جديداً وبنوا على قبره الجديد قبة صغيرة ترتكز إلى أربعة أعمدة وجعلوا حول القبر حوش صغير له جدران أربعة تعلوها قضبان حديدية، نقشت على الجدار الشمالي الكلمات التالية :

«بسم الله الرحمن الرحيم»

١ - كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام.

٢ - هذا قبر الفقير إلى الله تعالى عبدالرحمن بن محمد.

٣ - (بن) مجير الدين العليمي الفخري الحنبلي المقدسي.

٤ - مؤرخ القدس والخليل توفي سنة سبع وعشرين وتسعمائة [٣٨].

والمقبرة الثالثة هي : مقبرة الساهرة من مقابر المسلمين في القدس، وتقع هذه المقبرة على مسافة أمتار قليلة خارج سور القدس عند باب الساهرة على جبل يعرف بجبل الساهرة ويقال إن أرض الساهرة هي أرض القيامة وساحة الحشر. وتضم مقبرة الساهرة رفات عدد كبير من أعيان المسلمين المجاهدين والشهداء والعلماء. ولكثرة من دفن من المجاهدين في عصور مختلفة وخصوصاً الذين استشهدوا في فتح صلاح الدين لبيت المقدس، فقد دعيت المقبرة أيضاً مقبرة المجاهدين.

ورغم قدم مقبرة باب الساهرة وعراقتها فإنه لم يبق منها شيء يذكر من المشاهد القديمة أو شواهد القبور الأثرية. باستثناء كهف الأدهمية المشهور، وهي زاوية قديمة للفقراء الأدهمية، وهم أتباع الزاهد المجاهد إبراهيم بن أدهم الذي كان من ثقات أتباع التابعين، ومن كبار شيوخ الطريق.

وحوالي سنة ٧٦٠هـ قام الأمير منجك نائب الشام بتعمير تلك الزاوية ووقف عليها بعض الأوقاف هو وغيره من أهل الخير. وفي الأدهمية قبور جماعة من الصوفية الأدهمية وأشياعهم، ومنهم الشيخ الصالح داود الأدهمي شيخ الزاوية المتوفى سنة ٨٠٧هـ وقد صارت سُنة متبعة أن يدفن شيوخ الزاوية الأدهمية والأدهميون عموماً في الزاوية وفي مقبرة باب الساهرة فوقها (٣٩).

ارتباط القدس الروحي بالحجاز ومصر :

لعله ليس من بين بلدان الدنيا بلد يحق لها أن تفاخر غيرها بما حوته من مقدسات عربية كمدينة القدس، فهي موطن كثير من الأنبياء والرسل، يقول عنها «القزويني» : «وهي المدينة المشهورة التي كانت محل الأنبياء وقبلة الشرائط ومهبط الوحي... وما فيه من موضع إلا وصلى فيه نبي أو قام فيه ملك». كذلك يروي لنا ابن الجوزي أن الكثير من المحدثين يجمعون على أن الله عز وجل منذ خلق آدم إلى الدنيا لم يبعث نبياً إلا جعل قبلته صخرة بيت المقدس، وقد صلى إليها نبينا صلى الله عليه وسلم. لذا فهي مهوى أفئدة العرب والمسلمين وقرة أعينهم (٤٠).

هذا فضلاً عن أنها كانت ولاتزال مقصداً للحجاج من أبناء الديانات السماوية الثلاثة، حيث قصدها كثير من الحجاج المسلمين بعد عودتهم من قضاء مناسك حجهم في مكة المكرمة وزيارتهم للمدينة المنورة، فإلى زمن قريب كنا نسمع أن «فلاناً حج وقدّس» نذكر من ذلك على سبيل المثال أن ابن حجر العسقلاني حج في عام ٧٨٤هـ ثم توجه بعد الحج إلى زيارة القدس، وغالباً ما كان ينزل الحجاج المسلمون هؤلاء في العديد من الربط التي شيدت بالقدس غرباً وشمالاً من الحرم القدسي الشريف (٤١).

إلى جانب ارتباطها الشديد بالحرمين الشريفين في الحجاز مكة المكرمة والمدينة المنورة في العصر المملوكي، ليس مقصداً للحجاج بعد أداء مناسكهم، أو لأنها أولى القبلتين فحسب، بل باعتبار ما فيها من منشآت تجارية أقيمت لخدمة التجارة والتجار، وللانفاق على أوجه البر والخير في مكة المكرمة والمدينة المنورة، ومن هذه المنشآت نذكر «خان القطانين». أو خان الملك المؤيد شهاب الدين أحمد بن الملك الأشرف أبي النصر إينال. ففي فترة توليه منصب السلطنة سنة ٨٦٥هـ لمدة أربعة أشهر وتسعة أيام بعد أبيه،

أوقف هذا الخان على الحرمين الشريفين في الحجاز، وكان هذا الخان يشتمل على بوايك ومخازن سفلية وعلوية وحوانيت بسوق باب القاطنين نسبة إلى أحد أبواب المسجد الأقصى الشريف، وكان يتم تأجيره، وينفق من ريعه على مصالح الحرمين في الحجاز (٤٢).

وهناك دليل آخر نسوقه على ارتباط القدس ارتباطاً روحياً أكثر منه إدارياً بمصر، ألا هو «خان الظاهر» الذي أمر السلطان الظاهر بيبرس ببنائه في سنة ٦٦٢هـ ظاهر مدينة القدس، وبعد بناء الخان أمر السلطان بنقل الباب المعروف بـ«باب العيد» وهو أحد الأبواب التسعة للقصر الفاطمي الكبير في القاهرة إلى الخان فعمل بابا له. ويتضح مما ذكره المؤرخون المعاصرون أن السلطان أمر بتزويد الخان بمرافق وخدمات كثيرة، كما وقف عليه أوقافاً عديدة لضمان بقائه واستمراره، فقد كان في الخان مسجد له إمام خاص، وكان فيه بستان وفرن وطاحون، وكان الخبز يفرق على بابه للعابرين وأبناء السبيل، وكانت تقدم لهم مساعدات مالية، كما كان من شروط السلطان الواقف «إصلاح نعال النازلين به، وتقديم الأكل لهم مجاناً».

ويبدو أن الأوقاف لم تعمر طويلاً فإن مؤرخ القدس مجير الدين شكى في أواخر القرن التاسع الهجري، الخامس عشر للميلاد من أن الوقف الذي كان بالشام قد «أُخذَ» وأن ما كان قد شُرِطَ في الخان من الخبز وغيره قد انقطع «لفساد الزمان وتلاشي الأحوالَ» (٤٣).

ومن الأوقاف على مصالح المسجد الأقصى خان السلطان أو خان الوكالة، وهو من أشهر خانات القدس، ويقع هذا الخان قرب طريق باب السلسلة، ويتوصل إليه من زقاق قصير يمتد من طريق باب السلسلة إلى جهة الشمال، وهو قريب من سوق الخواجات «أي التجار» الذي يقع غربي الخان، ومن سوق الباشورة أي أنه يقع في منطقة تجارية مزدحمة. تدخل من طريق باب السلسة إلى زقاق مكشوف حتى تصل إلى بوابة الخان. هذا الخان وقفه السلطان الملك الظاهر أبو سعيد برقوق سنة ٧٨٨هـ على مصالح المسجد الأقصى، وكان يؤجر في السنة بأربعمائة دينار ويباع فيه أصناف البضائع وكان يشرف على تأجيره ناظر الحرم الشريف أو ناظر الحرمين الشريفين بالقدس، ومازالت دائرة الأوقاف في القدس تؤجر هذا الخان على هذا الأساس حتى العقد الأخير من القرن العشرين. والحق أن خان السلطان هذا من الآثار الإسلامية المهددة بالزوال، وكانت الحكومة الأردنية تخطط لإحياء هذا المكان، ولكن حرب يونيو ١٩٦٧م عطلت هذا المشروع. ومثله خان الفحم بباب السلسلة، وكان جارياً في وقف المسجد الأقصى الشريف (٤٤).

كذلك هنالك قيسارية في سوق باب القطانين أمام أحد أبواب المسجد الأقصى، تشتمل

على صفي حوانيت بعضها وقف على الحرم، وبعضها وقف على الخانقاه، والمدرسة اللتين أنشأهما الأمير سيف الدين تنكز نائب الشام [٤٥].

وهناك أيضاً خان الشعْارة الذي يقع في سوق الحصر على بعد حوالي ٤٠ متراً من مدخل سوق الحصر الشمالي، وبعد القنطرة المجاورة لطريق مار مرقص المتفرعة من سوق الحصر باتجاه الغرب. ويتألف الخان الذي ما يزال قائماً، من طابقين السفلي فيه مرابط للدواب وحوانيت كان يباع فيها البيض والدجاج وغيره من الطيور في الماضي القريب. أما الطابق العلوي ففيه مساكن يقطن في بعضها جماعة من آل الجاعوني،ولعلها كانت المساكن التي كان ينزل فيها زوار الخان في الماضي. وبعد احتلال سنة ١٩٦٧م استولت السلطات الإسرائيلية على ذلك الخان، وأخرجت سكان العرب وأسكنت فيه عائلات يهودية. أما تسمية «الشعارة» فنستنتج منها استنتاجاً أن الخانات كان سوقاً ومقراً لتجارة شعر الغنم، والشعارة في العامية على وزن حجّاره، تعني تجار الشعر [٤٦].

ومن الأدلة التي نسوقها على عروبة القدس وارتباطها الروحي بمصر وأقباط مصر خان القبط» أو خان الأقباط»، وهو الذي بناه أحد مطارنة الأقباط المصريين في القدس – ولعله لم يكن أول خان لهم وربما سبقه في العصر الذي نحن بصدده خانات مثيلة له – وقد تم تخصيصه لحجاج بيت المقدس من أقباط مصر الذين يحجون إلى المدينة المقدسة، هذا الخان كان يتكون من طابقين، ويحتوي على اثنتين وسبعين غرفة، وهو يطل على بركة البطرك من جهة الشمال، وما زال الخان معموراً، ويشغل أقساماً منه جماعة من أصحاب الحرف، وهو ضمن أربعة عشر خاناً تم بناؤها داخل أسوار مدينة بيت المقدس، بناها سلاطين وأمراء المماليك [٤٧]. وقد بلغ عدد ما عرفناه من هذه الخانات بالاسم ستة عشر خاناً، معظمها أنشئت في العصر المملوكي، واثنان منها على الأرجح شيدا في زمن العثمانيين. ومما هو جدير بالذكر أن الأكثرية الساحقة من خانات القدس كانت مؤسسات وقفية، وقفت ووقف عليها. أي أنها كانت تؤجر وينفق من ريعها في أوجه البر. هناك من هذه الخانات ثلاثة وقفها ثلاثةمن سلاطين المماليك بيبرس، وبرقوق، والملك المؤيد، وواحد وقفه أمير مملوكي كبير هو سيف الدين تنكز نائب الشام في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون، واخر وقفه على الأرجح الأمير ناصر الدين بن دلغادر من أمراء كيليكيا الروم «الترك» في القرن التاسع الهجري.

وإذا كان عدد الخانات في أية مدينة، دليلاً على مكانتها الاقتصادية والسياحية فإنه قد تبين لنا أنه كان في القدس من الخانات أكثر بكثير مما كان يُظن، وهذا فضلاً عما كان في المدينة من ربط عديدة لإقامة الحجاج، وخاصة بجوار الحرم القدسي من الغرب والشمال. وبما أن الخانات كانت تقام في المناطق التجارية عادة فإنه يتبين لنا من الخانات

ومواقعها أن منطقة باب القطانين وباب السلسلة وهما متقاربتان، كانتا أكثر المناطق أهمية من ناحية تجارية. فقد كان في كل منهما ثلاثة خانات على الأقل. وهذا يدل على أنهما كانتا قلب المدينة التجاري في العصور الوسطى بوجه عام وعصر سلاطين المماليك بوجه خاص (٤٨). هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن باب القطانين وسوق باب القطانين، وباب السلسلة من أبرز الآثار الإسلامية المملوكية في القدس وهي من العمائر التي يقصدها دارسو الفن الإسلامي. وقد أنشأ باب القطانين الأمير تنكز نائب الشام (٧١٢-٧٤٠هـ) وعمرهما العمارة المتقنة التي ما تزال ظاهرة إلى الآن (٤٩) والتي تعتبر مفخرة لفن البناء المملوكي في القدس، ودليلاً على عروبة القدس كذلك في ذلك العصر.

جامعات بيت المقدس والثقافة العربية :

من المسلم به أن الجامعات قد ظهرت في كنف الحضارة العربية الإسلامية منذ وقت باكر في العصور الوسطى. فلقد تأسست جامعة الأزهر الشريف في القاهرة في القرن العاشر للميلاد، كما أقيمت الجامعة «المدرسة» النظامية في بغداد في القرن الحادي عشر، ثم ظهرت جامعات أخرى منافسة في كل من نيسابور ودمشق، وبيت المقدس، والإسكندرية، ووصلت المؤسسة الجامعية كمالها عند إنشاء الجامعة «المدرسة» المستنصرية سنة ١٢٣٤م، التي حوت كليات أربع، واحدة لكل مذهب من المذاهب الأربعة (٥٠).

فلقد تكاتفت عوامل الأمن والاستقرار والرخاء والثراء في بيت المقدس عصر سلاطين المماليك ليظهر أثرها في كثير من المنشآت التعليمية والخيرية والاجتماعية، وكان للجامعات «المدارس» حظ كبير في هذه الحركة، إذ شيد سلاطين وأمراء المماليك منها الكثير في القدس، بل إن مجير الدين الحنبلي مؤرخ القدس وهو معاصر قد عدد لنا أكثر من أربعين مدرسة في بيت المقدس، وأكثر من عشرين زاوية، فضلاً عن مكاتب الأطفال أي الكتاتيب والمساجد (٥١). بل وتشير بعض المراجع إلى أن المشاهد والترب اتخذت كمؤسسات تعليمية، حيث رتب بها منشئوها المدرسين والطلبة. ولنا أن نتصور ضخامة هذا العدد من المنشآت التعليمية بالنسبة لمدينة صغيرة كمدينة القدس، وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على مدى اتساع دائرة النشاط العلمي فيها، وحرص الأمراء والسلاطين المماليك على أن يظهروا بمظهر المتصلين والمشجعين للثقافة الإسلامية واللغة العربية. وقد وجدت هذه المؤسسات التعليمية في نظام الوقف خير دعامة تشد أزرها وتمكنها من البقاء والاستمرار في أداء رسالتها. هذه الأوقاف قد تكون أرضاً زراعية أو عقارات، أو أسواق وحوانيت وحمامات وخانات تدر إيراداً ثابتاً، ينفق منها على صيانتها ودفع

مرتبات العاملين بها، ومخصصات النازلين فيها. ولقد اخترنا من الجامعات «المدارس» المدرسة الأشرفية نسبة للسلطان الأشرف قايتباي بجوار باب السلسلة، وتعتبر الحجة الشرعية الخاصة بالأوقاف التي أوقفها السلطان قايتباي على مدرسته بالقدس على جانب كبير من الأهمية، وهي محفوظة بأرشيف وزارة الأوقاف بالقاهرة تحت رقم ٨٨٧، ومؤرخة في الحادي والعشرين من شهر شوال سنة إحدى وثمانين وثمانمائة للهجرة، والتي قام بنشرها أستاذنا الدكتور عبداللطيف إبراهيم سنة ١٩٥٩م في بحث تقدم به للمؤتمر الثالث للآثار في البلاد العربية تم في القاهرة سنة ١٩٦١م.

ويهمنا من هذه الوثيقة أنها بعد أن عينت حدود الجامعة «المدرسة» من مختلف الجهات، تذكر الأراضي والعقارات التي وقفها السلطان عليها، وهي عدة أجزاء من قرى كثيرة في فلسطين في كل من الخليل، وغزة، واللد، وبيت جبريل، ونابلس، والرملة، وبعض المباني في غزة. ثم توضح بعد ذلك الوظائف الخاصة بتلك الجامعة «المدرسة» ومرتب كل منها، وأبواب الصرف من ريع الوقف في كل شهر. فناظر الوقف كان يخصص له ستمائة درهم شهرياً، وشيخ المدرسة «مدير الجامعة» أو «عميد الكلية» وهو الذي يقوم بأعباء الإمام والمدرس وقاريء الحديث في نفس الوقت، كان يخصص له خمسمائة وعشرة دراهم شهرياً، ونصت الوثيقة على أن يقيم بها ستون صوفياً يصرف لهم تسعمائة درهم شهرياً، لكل منهم خمسة عشر درهماً، وعشرة طلاب يصرف لهم أربعمائة وخمسون درهماً شهرياً، لكل منهم خمسة وأربعون درهماً، ثم تذكر الوثيقة ما كان يتم من توسعة على النازلين بالمدرسة في شهور رجب وشعبان ورمضان من كل عام، حيث خُصص لهذه التوسعة ألفي درهم، ثم خصص لقاريء الحديث ثلاثون درهماً شهرياً، وكذلك مفرق الربعة الشريفة وهو نفسه خازن الكتب أي أمين المكتبة ويخصص له عشرة دراهم شهرياً، ثم تذكر الوثيقة البواب أي حارس المدرسة، والمزملاتي أي المسئول عن توزيع مياه الشرب، والفراش، والوقاد أي المسئول عن إضاءة وإطفاء المصابيح ولكل منهم ستون درهماً شهرياً، ثم كاتب غيبة الصوفية أي من يقوم بعملية حصر الغياب والحضور، وله عشرة دراهم، والمباشر أي المشرف وله أربعون درهماً شهرياً، ثم بعد ذلك ما يخصص من أجل ثمن زيت للإضاءة ستون درهماً شهرياً، وثمن الحصر والقناديل والأباريق مائة درهم، ثم يلي ذلك الشاد والجابي، ولكل منهما درهم شهرياً، هذا إلى جانب ما تذكره الوثيقة من نصيب كل من هؤلاء من الخبز كل يوم. فإذا تبقى بعد ذلك شيء من ريع الوقف، فإنه على الناظر أن يصرفه في وجوه البر والقربات والأجر والمثوبات ثم للفقراء والمساكين أينما كانوا وحيثما وجدوا (٥٢).

من هذا العرض السريع لوثيقة السلطان الأشرف قايتباي والتي خصصها لمدرسته

وللجامع في غزة تتضح لنا أهمية الأوقاف في حياة الجامعة «المدرسة» كإحدى المؤسسات التعليمية في بيت المقدس في ذلك العصر، ومنها يتضح لنا أن تلك الأوقاف وفرت للمدرسة مورداً دائماً سواء في حياة واقفها أو بعد مماته بما يضمن لها الاستمرار في أداء رسالتها التعليمية، فضلاً عن أن المبالغ التي خصصت من ريع الوقف بالنسبة للقائمين عليها أو النازلين بها - إذا قارناها بمستويات الأسعار في ذلك العصر والتي لاشك أنها كانت منخفضة جداً بالنسبة لعصرنا الحالي - لوجدنا أن المبالغ التي خصصت لكل منهم كانت كفيلة بأن تهيىء له مستوى معقولاً من المعيشة بالإضافة إلى ما كان يصرف لكل منهم من الخبز واللحم والكسوة في المناسبات المختلفة.

أما عن التعليم في الجامعات «المدارس» في بيت المقدس فإنه سار وفق ما هو معروف من نظم تعليمية في بلدان العالم العربي في ذلك الوقت، من حيث كونه لم يكن خاضعاً لنظم ثابتة، أو يجري داخل مؤسسات رسمية، فضلاً عن أنه كانت هناك علاقة وطيدة بين الأستاذ «المدرس» وطلابه، والتي تعد من أفضل الملامح الرئيسية في التعليم العربي والإسلامي، بالإضافة إلى أن الذاكرة كانت على جانب كبير من الأهمية، فكان على الطالب أن يتذكر الملاحظات التي تملى عليه، فضلاً عن أنه أتيح للطلاب فرصة وحرية اختيار الموضوعات التي يدرسونها، وحرية التنقل من مدرسة لأخرى لجمع المعلومات على أكبر عدد من العلماء (٥٣). هذا إلى جانب أنه وجد نوع من التعليم العالي عن طريق الملازمة، حيث يعيش طالب العلم ملازماً لمدة طويلة لأستاذه بحيث يكتسب فيها معظم تعاليم أستاذه حتى يصبح هو عالماً، وأحياناً يقضي معظم عمره مع هذا الأستاذ وقد يتزوج ابنته، ويصبح خليفته (٥٤).

واختلفت الدراسة في الجامعات «المدارس» في بيت المقدس باختلاف الهدف الذي أقيمت من أجله الجامعة أو المدرسة، وباختلاف المذاهب التي أنشئت من أجلها، فقد كانت هناك مدارس للشافعية، وأخرى للحنفية والحنابلة، والمالكية، يدرس في كل منها الفقه على المذهب الخاص بها. كما أن اختلاف هذه المدارس مذهبياً، قد أدى إل تجميع مسائل الخلاف بين تلك المذاهب في دراسات خاصة، عرفت باسم «علم الخلاف» وقد برع فيها كثير من علماء المقادسة في ذلك العصر. كما تركزت الدراسة في تلك المدارس حول علوم الحديث والقرآن واللغة العربية من نحو وصرف، فضلاً عن تدريس القراءات والوعظ، والعلوم الرياضية. هذا بالإضافة إلى أن بعض المدارس كانت مخصصة لتدريس علم بذاته، مثل دار الحديث، وهي مدرسة بجوار التربة الجالقية من جهة الغرب، واقفها الأمير شرف الدين عيسى بن بدر الدين الهكاري، وتاريخ وقفها في الخامس والعشرين من رجب سنة ست وستين وستمائة، وكذلك دار القرآن السلامية تجاه دار الحديث، واقفها سراج الدين عمر بن أبي بكر أبي القاسم السلامي، وتاريخ وقفها في العشرين من ربيع الآخر

سنة إحدى وستين وسبعمائة [٥٥]. والمدرسة النحوية على طرف صحن الصخرة من جهة القبلة إلى الغرب [٥٦]. ومما يلفت النظر حقاً في مدارس القدس أنها كلها تركزت في مكان واحد حول الحرم القدسي الشريف أو بداخله. ويشير أحد الباحثين إلى أن تلك المعاهد العلمية، وإن كان بعضها قد اندثر في زمن المماليك وأصبح بيوتاً استولت عليها بعض العائلات المقدسية، أو الأوقاف الإسلامية في العصر العثماني، إلا أنها لاتزال آثاراً ناطقة يجدر الاعتناء بها وإصلاحها وإعادتها إلى حالتها الأولى [٥٧].

نخبة من علماء القدس ودورهم في الثقافة العربية :

ففي إحصائية قمنا بها لكتاب الأنس الجليل والذي يعتبر أحد أهم المصادر في تاريخ القدس في ذلك العصر، بل هو أهمها جميعاً، حيث اهتم فيه مؤلفه بذكر علماء بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك بصفة خاصة، فقسم العلماء حسب مذاهبهم الدينية وهم الذين اطلع على ترجمتهم فقط، كما أنه يكشف لنا بجلاء أن اللغة العربية كانت لغة الحكم والإدارة والأدب، ومن يطلع على الأعمال الكثيرة التي خلفها لنا علماء القدس سيكتشف هذه الحقيقة بسهولة وأن هذه اللغة بأدبها المكتوب كانت تربط بين الجماعات السكانية في القدس برباط من التفاهم والاتصال والتواصل.

فبالنسبة لعلماء الشافعية فقد ذكر مجير الدين في كتابه هذا ترجمة لـ ٢٩٨ فقيهاً من فقهاء الشافعية والذين أطلع على تراجمهم. أما بالنسبة للحنفية فقد ذكر لنا ترجمة لـ ٦٥ فقيهاً من علماء الحنابلة. أما المالكية، فقد أورد تراجم لـ ٣٣ فقيهاً، وفي النهاية أورد تراجم لـ ١٤ فقيهاً من فقهاء الحنابلة. وبذلك يكون إجمالي هذا العدد ٤١٠ فقيهاً من مختلف المذاهب، هؤلاء هم الذين وقف على تراجم لهم [٥٨] فإذا أضفنا إليهم هؤلاء الذين لم يقف على تراجم لهم، وقارنا بين ذلك العدد من الفقهاء وبين مساحة المدينة من جهة لأدركنا كثرة عدد العلماء العرب بالنسبة لصغر حجم المدينة، أما عن تلك المساحة فيذكر أحد الباحثين أنها لم تكن تزيد عن ٨٦٨ ألف متر مربع [٥٩]. كما يتفق كل من كوندر وريتشارد بكوك على أن محيط المدينة لا يزيد بحال من الأحوال عن أربعة أميال، بل ربما يقل عن ذلك [٦٠].

ومن جهة أخرى إذا قارنا هذا العدد من العلماء بالنسبة لعدد السكان، والذي لم يزد عن مائتي ألف نسمة، لتأكد لنا أن العلوم الدينية بوجه خاص قد حظيت بسهم وافر في تلك البيئة التي يغلب عليها الطابع الديني، ومن الطبيعي أن ينبع ذلك الاهتمام بتلك العلوم مما اتسمت به الحياة في مدينة بيت المقدس من سمات دينية، جعل من هذه المدينة إحدى المراكز الخصبة للفكر الإسلامي في ذلك العص [٦١].

أمـا ثمرة ذلك فـقـد تمثلت في عـدد كبـير مـن المؤلفات والرسـائل والمصنفـات، والتي ارتبطت ولادتهـا ببيت المقـدس لتـجعل من هذه المدينـة مركـزاً من أهم مراكـز الحضـارة العربية والفكر الإسلامي في عصر سلاطين المماليك، كما ارتبطت بأسماء عربية لامعة مثل ابن غـانم المقـدسي وهو الحـافظ عـز الدين عـبدالسـلام أحـمـد بن غـانم المقـدسي (ت٦٧٨هـ-١٢٧٩م)، حكيم صوفـي، واعظ من تصانيفـه : حل الرموز ومفـاتيح الكنوز، الروض الأنيق في الوعظ الرشيق، وكشف الأسرار عن الحكم المودعة في الطيور والأزهار، وكشف الأسرار القلبية، وابن قدامة الحنبلي وهو الإمام شمس الدين أبو محمد عبدالرحمن بن أحمد بن محـمد بن قدامة الحنبلي المقدسي، الذي انتهت إليه رياسـة مذاهب الإمام أحمد بن حنبل في زمانه، وشرح كـتاب «المقنع» في الفقه تأليف عمه شـيخ الإسلام موفق الدين رحمه الله [٦٢]. والشيخ الإمام الخطيب المدرس المفتي، شـرف الدين أبو العباس أحمد بن كمال الدين أحمد بن نعـمة المقدسي الشافعي. كان يتقن فنوناً كثـيرة من العلوم وله شعر حسن، وصنف كـتاباً في أصـول الفقـه جمع فيـه شيئـاً كثـيراً [٦٣]. والشيـخ نجم الدين الطوخي الصرصري المقدسي الحنبلي، كان قد سافر إلى القاهرة وولي الإعادة بالمدرستين الناصرية والمنصورية بها، وله تصانيف منها : بغـية السائل في أمهات المسائل في أصول الدين، ومختصر الروضـة في أصول الفقه، ومختصر الحاصل في أصـول الفقه، والقواعد الكبرى والصغرى، والإكسير في قواعد التفسير، والرياض النواضر في الأشباه والنظائر، وبغـية الواصل إلى مـعرفـة الفواصـل، وغيـر ذلك من المصنفات في الأدب والجـدل [٦٤]. وشهاب الدين أحمـد بن جبارة المرداوي الحنبلي الزاهد الفقيه الأصـولي المقريء، النحوي أحد شيوخ ابن الوردي، أقام بحلب ثم بالقدس، وكـان صالحاً صادقاً زاهداً، ولـه مصنفات منها شـرح الشـاطبيـة في أربع مجلدات [٦٥]. والشيخ بدر الديـن بن جماعـة، هو قاضي القضاة وشيخ الإسلام، ولي الخطابة بالمسجد الأقـصى الشريف، وإمامته وقضاء القدس، وله النظم والنثـر والخطب والتصـانيف منهـا التبـيان لمهـمات القـرآن، وغرر التـبيـان، والفوائد الـلائحة من سورة الفـاتحة، والمنهل الروي في عـلوم الحديث النبـوي، والفوائد الغزيرة في أحـاديث بزيرة، وتنقيح المناظرة في تصـحيح المخابـرة، وتحـرير الأحكام في تدبيـر جـيش الإسلام، ومـسـتند الأجناد في آلات الجـهـاد، والطاعـة في فضـيلة صـلاة الجماعة، وحـجة السلوك في مهاداة الملوك، وكشف الغـمة في أحكام أهل الذمة [٦٦]. وابن عبـدالهادي «ت٧٤٤هـ-١٣٤٣م» وهو مـحمد بن أحـمد بن عـبدالهادي، شـمس الدين أبو عبدالله ابن قدامة المقدسي، حافظ للحديث، عارف بالأدب، من كبار الحنابلة، صنف مايزيد على« سبعين كتاباً، يزيد ما أكمله منها على مائة مجلد ومات قبل بلوغ الأربعين، من كتبه : العقـود الدرية في مناقب شيخ الإسـلام أحمد بن تيـمية، والمحـرر في الحـديث، وفـضائل الشام، وقـواعد أصول الفـقه، والصارم المنكي في الرد على السـبكي، وشرح التسـهيل في مجلدين، وجمع التفـسير المسند ولم يكمله، ولـه كلام على أحاديث مخـتصر ابن الحـاجب،

التزم في كتابه الأمانة في النقل والتحرر من آراء الرجال مما يجب أن يلتزمه كل مخالف مع من يخالفه (٦٧). والشيخ صلاح الدين خليل بن كيلكدي بن عبدالله العلائي الشافعي المحقق بقية الحفاظ، جد واجتهد حتى فاق أهل عصره في الحفظ والاتقان، انتقل إلى القدس مدرساً للصلاحية وأقام بها، وقد كان إماماً في الفقه والنحو والأصول، مفنناً في علم الحديث ومعرفة الرجال، علامة في معرفة المتون والأسانيد، ومن مؤلفاته فهرست مسموعاته في كتاب سماه الفوائد المجموعة في الفرائد المسموعة، وتحفة الرائض بعلوم آيات الفرائض، والأربعين في أعمال المتقين، شرح حديث ذي اليدين في مجلد، الوشي المعلم فيمن روى عن أبيه عن جده عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعقيلة الطالب في ذكر أشرف الصفات والمناقب، وتنقيح المفهوم في صيغ العلوم، ومختصر جامع الأصول لأحاديث الرسول، والأشباه والنظائر في فروع الفقه الشافعي، وتفصيل الإجمال في تعارض الأقوال والأفعال، وبرهان التيسير في عنوان التفسير (٦٨). والشيخ ابن مفلح، محمد بن مفلح أبو عبدالله شمس الدين المقدسي، أحد كبار علماء الحنابلة في عصره. ولد ونشأ في بيت المقدس، وتوفي بصالحية دمشق سنة ٧٦٣هـ-١٣٦١م، ومن تصانيفه كتاب الفروع، ثلاثة مجلدات في الفقه، والنكت والفوائد السنية على مشكل الحرر لابن تيمية في الفقه، وأصول الفقه، والآداب الشرعية الكبرى في ثلاثة مجلدات، وله شرح على المقنع لابن قدامة في الفروع ثلاثين مجلداً (٦٩). والشيخ الحسن بن عبدالله المقدسي المتوفى سنة ٧٧١هـ- ١٣٧٠م، اشتغل بالعلم فبرع في الفنون، له نظم بديع، وكان يزدحم الفضلاء والعامة في مجالس علمه. ومن تصانيفه القصد المفيد في حكم التوكيد، ومسألة رفع اليدين والكلام على قوله تعالى «أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله..» وله نثر فائق (٧٠). والشيخ محب الدين ابن الهائم المصري المتوفى سنة ٧٩٨هـ- ١٣٩٥م، اشتغل بالفقه والعربية والقراءات والحديث، ومهر في الجميع في أسرع مدة، وقد رافق ابن حجر في سماع الحديث كثيراً، ثم صنف وخرج لنفسه ولغيره، وهو أذكى من رآهم ابن حجر مع الدين والتواضع وحسن الخلق والصيانة (٧١). والشيخ أحمد بن محمد بن عماد الدين بن علي المقدسي المعروف بابن الهائم، شهاب الدين أبو العباس الشافعي الفرضي، وله من التصانيف إبراز الخفايا في فن الوصايا، والبحر العجاج في شرح المنهاج للنووي، والتبيان في تفسير القرآن أربعة مجلدات، وتحرير القواعد العلائية وتمهيد المسالك الفقية، والتحرير لدلالة نجاسة الخنزير، والتحفة القدسية منظومة في الفرائض، وتحقيق المنقول والمعقول في نفس الحكم الشرعي عن الأفعال قبل بعثة الرسول، ورفع الكلام عن القائل باستحباب القيام، والعجالة في استحقاق الفقهاء أيام البطالة، والعقد في تحقيق كلمة التوحيد، وغاية السؤال في الإقرار في الدين المجهول، والفصول المهمة في مواريث الأمة، وكفاية الحفاظ في الفرائض، واللمع في اجتناب البدع، والمغرب في استحباب الركعتين قبل المغرب، والممتع في شرح المقنع

المقنع شرحه الكبير، وغير ذلك من العلوم الرياضية من حساب وجبر ومقابلة (٧٢) والشيخ عبدالرحمن القلقشندي «ت٨٢٦هـ - ١٤٢٢م»، هو عبدالرحمن محمد بن اسماعيل القلقشندي المقدسي، الشافعي زين الدين، محدث، مفسر سمع بدمشق ونابلس والقدس، وتوفي بالقدس، ومن آثاره : تفسير الفاتحة، وتعليقات على شرح السراج البلقيني لجامع الصحيح البخاري. والشيخ ابن الديري «ت٨٦٧هـ-١٤٦٢م»، هو سعد بن محمد بن عبدالله بن سعد بن أبي بكر بن سعد النابلسي الأصل القدسي الحنفي، ويعرف بابن الديري، مفسر، فقيه، متكلم، أديب، من تصانيفه : الكواكب النيرات في وصول ثواب الطاعة إلى الأموات، وتكملة شرح الهداية للسروجي، وشرح المسايرة في العقائد المنجية في الآخرة. والسهام المارقة في كبد الزنادقة، وقصيدة مخمسة في مدح النبي صلى الله عليه وسلم (٧٣).

كان هذا عرضاً لبعض نماذج من علماء بيت المقدس في مجال العلوم الدينية المختلفة، من حديث وتفسير وفقه، وهو قليل جداً من كثير بالنسبة لما سبق وأشرنا إليه. ولكنه إن دل على شيء فإنما يدل على أن العلوم الدينية قد حظيت بسهم وافر في تلك البيئة التي غلب عليها الطابع الديني. إلى جانب نشاط علمائها الملحوظ في مجال التصوف، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ابن غانم المقدسي والذي سبقت الإشارة إليه، وله مخطوط في التصوف بدار الكتب المصرية يقول إنه سماه حل الرموز وفواتيح الكنوز، وقد كتبه ليبين للناس أنهم يجب أن يتبعوا من الكلام معانيه، ومن الحكم ما يبلغون به أمانيهم، حيث رأى أن كثيراً من الألفاظ في عصره قد ارتبك في غموضها كثير من أهل الاعتراض، وذكر في مقدمة كتابه كيفية حل الإشكالات التي تواجه الناس في فهم رموز القرآن والأحاديث، ثم تحدث عن الظاهر والباطن، وما يجب على الشخص أن يفعله حتى يصل إلى مرتبة القربى من الله وحتى يوصف بمحبة ربه (٧٤).

كما برع من أبناء القدس كثير في علم القراءات مثل شمس الدين الجزري من علماء القرن الثامن الهجري، له مصنفات جليلة منها كتاب النشر في القراءات العشر، وذيل على طبقات القراء للذهبي، والحصن الحصين في الأدعية والأذكار، وغير ذلك، ومنهم ابن جبارة المقدسي المتوفى سنة ٧٢٨هـ - ١٣٢٧م، وتصدر لإقراء القراءات بالقدس، وصنف تفسيراً وأشياء في القراءات ذكره الذهبي في معجم شيوخه. ومنهم أيضاً ابن القباقبي «ت٨٤٩هـ - ١٤٤٥م»، يقول عنه السيوطي «المصنف في القراءات الأربعة عشر، وناظم الثلاث الزائدة على العشرة، تصدى للإقراء، وانتفع به الناس، وولي مشيخة الجوهرية ببيت المقدس، وله بديعية، وتخميس البردة، وبانت سعاد. وغير ذلك (٧٥).

كما كان لعلماء بيت المقدس فضل يذكر في الأدب والنحو، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر الشيخ نجم الدين الطوخي الصرصري الذي سبقت الإشارة إليه، وله عدة

مصنفات في الأدب منها الرحيق المسلسل في الأدب، وتحفة أصل الأدب في معرفة لسان العرب، وشرح مقامات الحريري، وموائد الحيس في شعر إمرىء القيس. أما علم التاريخ فقد كان له نصيب بارز من نشاط وازدهار الحياة العلمية في بيت المقدس، ويشهد على ذلك بروز عدد من الأعلام الذين أنجبتهم المدينة وارتبطت حياتهم بها. أمثال أبي شامة المقدسي المتوفى سنة ٦٦٥هـ - ١٢٦٦م ومن أهم مؤلفاته كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، وابن فضل الله العمري «ت٧٤٩هـ - ١٣٤٨م» كاتب السر بالديار المصرية، وله عدة مؤلفات تنوعت بين تقويم البلدان والتاريخ، وشئون الإدارة، وتراجم الشعراء في المشرق والمغرب، وكتاب مسالك الأبصار في ممالك الأمصار والذي شمل معارف وعلوم عديدة، وكتاب التعريف بالمصطلح الشريف والذي قصد به أن يكون مرجعاً في كل ما يحتاج إليه من يعمل بالدواوين، من صيغ للمراسلات والألقاب، والنظم الإدارية. بالإضافة إلى عدة كتب أخرى. ومنهم ابن سرور المقدسي «ت٧٦٥هـ - ١٣٦٣م» ومن أهم مؤلفاته مثير الغرام إلى زيارة القدس والشام، وهو أحد كتب الفضائل الهامة والتي تحدثت عن تاريخ بيت المقدس منذ الفتح الإسلامي إلى فتح صلاح الدين الأيوبي لها. ومنهم تاج الدين التدمري «ت٨٣٣هـ - ١٤٢٩م» وله كتاب أسماه «مثير الغرام إلى زيارة الخليل عليه الصلاة والسلام». ومنهم ابن شاهين المتوفى سنة «٨٧٣هـ - ١٤٦٨م» ومن أهم مؤلفاته زبدة كشف الممالك، وبيان الطرق والمسالك. علماً بأن مؤلفاته قد بلغت الثلاثين. ومنهم مجير الدين الحنبلي «ت ٩٢٨هـ/ ١٢٥١م» ولد بالقدس وتوفي بها، وكان معاصراً للسلطان الأشرف قايتباي، ومن أهم مؤلفاته كتاب الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل والذي جمع فيه تواريخ المدينة من آدم عليه السلام إلى سنة ١٤٩٤م، وهو من أهم الكتب التي تناولت تاريخ مدينة القدس في العهدين الأيوبي والمملوكي، وقد قسم كتابه إلى مواضيع مستقلة كالمدارس والمساجد والأسواق والكنائس والمزارات، وضمن كل موضوع يتتبع الترتيب الحولي عند ذكره الحوادث السياسية المتعلقة بالموضوع، إلا أن اهتمامه الأكبر كان بالأحداث ذات الطابع الديني ونشاط الفقهاء (٧٦).

كذلك شهدت المدينة المقدسة نشاطاً ملحوظاً في مجال الرياضيات، والطب، والفلك، واشتهر في هذه العلوم كثير من أبنائها الذين ذاعت شهرتهم في كل الآفاق في ذلك العصر. كما عرفت المدينة، نوعاً من التخصص في بعض العلوم مثل العلوم الطبية، فهذا واحد من أبنائها وهو جمال الدين يوسف بن أحمد بن عبدالهادي «ت ٨٨٠هـ» قد ترك لنا أحد مؤلفاته تحت عنوان «الإتقان في أدوية اللثة والأسنان» (٧٧).

من أوجه الرعاية الاجتماعية :

حظيت مدينة بيت المقدس في عصر سلاطين المماليك بكثير من أوجه الرعاية

الاجتماعية، عن طريق تحقيق التكافل الاجتماعي، ونجدة الملهوف، ومساعدة المحتاج، وترسيخ القيم الإنسانية وتحويلها من عادات يحكمها العرف إلى عمل منظم تحكمه قواعد وترعاه مؤسسات شرعية بما يتفق مع الشريعة الإسلامية، وهو ما عُرف لدى الفقهاء باسم المصالح المرسلة التي تتحقق من جلب منفعة للخلق ودفع مضرة في الدنيا والدين (٧٨).

ومع أن ذلك يشمل العديد من الوجوه، مثل رعاية الأيتام وإدارة أموالهم وتعليمهم، وبيوت الصوفية،والرباع، والحمامات ودورها في الرعاية الاجتماعية. إلا أننا سنركز كلامنا على توفير الماء العذب والرعاية الصحية، حيث تناولنا بقية هذه الجوانب في أعمال لنا أخرى. فقد كانت المدينة المقدسة تشكو باستمرار من قلة الماء لعدم وجود أنهار بها، وكان اعتماد أهلها على مياه الأمطار التي يجمعون مياهها في خزانات «صهاريج» أعدت لذلك، وعلى الينابيع الضئيلة الواقعة في سلوان وهي قرية إلى الجنوب الشرقي من القدس، وبعض البرك المحيطة بالمدينة، مثل بركة ماملا غربي المدينة، وبركة السلطان بين الخليل وبيت لحم وبركة حزقيا شمال شرقي المدينة، إلى جانب بركة إسرائيل وتعرف ببركة الضأن أو بركة الغنم (٧٩).

وكان لدخول القدس تحت حكم سلاطين المماليك أثره الواضح في ازدياد عدد السكان بها، لذا كان لابد من البحث عن مصادر جديدة للمياه، وتركزت هذه السياسة في شقين، الشق الأول وهو ضرورة الاستفادة من المياه الجوفية، أما الشق الثاني فهو البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس. وفيما يتعلق بالمياه الجوفية فقد ركز سلاطين وأمراء المماليك جهودهم في حفر كثير من الآبار في شتى أنحاء المدينة، وتركيب أعداد كبيرة من السواقي التي تجرها الجمال لرفع هذه المياه من باطن الأرض، كغيرها من المدن التي ليست بها أنهار في السلطنة (٨٠). وتسبيل هذه المياه ليستفيد بها سكان المدينة وزوارها في كثير من المنشآت الاجتماعية من أسبلة، وحمامات، وأحواض، وسقايات، ومطاهر أو مياضيء.

أما عن البحث عن مصادر جديدة للمياه خارج القدس في الأودية المحيطة بها والقريبة منها، وتجميع هذه المياه وتوصيلها إلى المدينة المقدسة عن طريق عدة قنوات أهمها قناة السبيل أو قناة العروب التي كانت تأتي بالماء إلى القدس من عين العروب وبرك سليمان الواقعة في وادي العروب بين الخليل والقدس، وعلى بعد ٢٢ كيلو متراً من القدس، حيث ينبع الماء من سبعة عيون. ومن وادي البيار عند الكيلو ١٨ على طريق الخليل وفيه خمسة ينابيع، والمياه التي تتفجر من هذه العيون تصب في برك سليمان الثلاث، ثم يسير الماء منها إلى قناة السبيل التي تقوم بتوصيله إلى القدس (٨١). وقد ذكر المقريزي هذا الإنجاز

الكبير في حديثه عن سنة ٧٢٨هـ - ١٣٢٧م بقوله : «وفيها كملت العين التي أجراها الأمير تنكز بالقدس بعدما أقام الصناع فيها مدة سنة ... وركب في الجبل مجاري نقب لها في الحجر حتى دخل الماء إلى القدس، فكان له يوم مشهود» (٨٢). وقد استمرت رعاية سلاطين وأمراء المماليك لهذا المصدر حتى نهاية العصر المملوكي (٨٣). ولقد وفرت هذه المصادر الجديدة الكثير من المياه حتى داخل المؤسسات الدينية والخيرية والثقافية، من ذلك أن المدرسة التنكزية بجوار الحرم القدسي الشريف عند الباب المعروف بباب السلسلة، كان في وسطها بركة مثمنة يجري لها الماء من قناة العروب بحق واجب معلوم، ولهذه المدرسة طهارة تشتمل على خمسة بيوت أحدها مستحم، وفي كل بيت منها جرن حجر يجري إليه من قناة العروب المذكورة (٨٤). كما أنشأ الأمير سيف الدين تنكز نفسه بركة ماء عظيمة تقع داخل الحرم ما بين الصخرة والمسجد الأقصى، وهي كبيرة، وملبسة بالرخام (٨٥). بل لانغالى إذا قلنا إن القدس ظلت تستقى الماء عن طريق برك سليمان هذه وعين العروب حتى سنة ١٩٢٦م، عندما حلت محلها مياه عين فارة التي تبعد ١٤ كيلو متراً إلى الشمال الشرقي من القدس، وبعدها حلت محلها مياه رأس العين في سنة ١٩٣٥م والتي تبعد حوالي ستين كيلو متراً إلى الشمال المغربي من القدس (٨٦).

الرعايـــة الصحيحة :

أول ما يلفت النظر في مجال الخدمات الصحية في القدس هو الاهتمام الفائق بوسائل الصرف الصحي أو المجاري، والحقيقة أن نظام الصرف الصحي كان معروفاً منذ العهد الروماني، ولقد ظهر من الحجارة المتنوعة التي استخدمت في ترميم شبكة الصرف هذه وإصلاحها شدة عناية سلاطين وأمراء المماليك بها، وأنها رممت عدة مرات في ذلك العصر حتى يتيسر لسكان المدينة التخلص من الأقذار وتصريفها، وأن نظام المجاري هذا مازال يسير على أحسن وجه حتى القرن العشرين للميلاد، مما ساعد على حفظ المدينة من كثير من الأمراض (٨٧).

كذلك كان بالقدس عدد من البيمارستانات «المستشفيات» التي أدت الكثير من الخدمات الصحية؛ إذ يرجع وجود البيمارستان في القدس إلى أيام الفاطميين، حيث يذكر الرحالة الفارسي ناصر خسرو الذي زار المدينة سنة ٤٣٧هـ - ١٠٤٥م في قوله : «وفي بيت المقدس مستشفى عظيم عليه أوقاف طائلة ويصرف لمرضاه العديد من العلاج والأدوية وبه أطباء يأخذون مرتباتهم من الوقف، وهذا المستشفى ومسجد الجمعة على حافة وادي جهنم» (٨٨). وفي العصر الأيوبي كان هناك «البيمارستان الصلاحي» الذي أنشأه صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ - ١١٨٧م واستمر يؤدي وظيفته في العصر المملوكي (٨٩)

ولقي الكثير من العناية من سلاطين وأمراء المماليك، بل وأهل الخير، ففي سنة ٧٦٨هـ قام أحد تجار بيت المقدس بوقف دار على مصالح البيمارستان الصلاحي، على أن ينفق من ريع تلك الدار على شراء أدوية للمرضى، وأغذيتهم، وأغذية المجانين وأدويتهم، وسائر ما يحتاجون إليه، وبهذا شارك هذا التاجر في أن يستمر البيمارستان في أداء رسالته بعد صلاح الدين بأكثر من مائة وسبعين سنة (٩٠).

كما قام بعض أمراء المماليك بدور فعال في دعم هذا البيمارستان، من ذلك أن الأمير بكتمر الجوكندار قد أوقف قرية مجدل فضيل من عمل مدينة الخليل على مرضى المسلمين الفقراء والمساكين الذين يترددون على هذا البيمارستان سنة ٧٤٥هـ وحيث تم توزيع الأدوية والعقاقير الطبية عليهم بالمجان. كما تذكر الوثائق أن بعض المنشآت الاجتماعية كان لها دورها في الرعاية الصحية في القدس، من ذلك أن الأمير بدر الدين بن حسام الدين بركة خان انشأ تربة في القدس، وأوقف عليها قرية دير الغصون في طولكرم، ومن ريع هذه القرية كان ينفق على التربة وما تقوم به من أعمال الخير في مداواة المرضى وتجهيز الموتى بالقدس الشريف، والتي غدت واحدة من المنشآت الاجتماعية الهامة بما قدمت من خدمات، وما حوته من أحواض للدواب، وحوانيت، هذه التربة أصبحت منذ سنة ١٩٠٠م المكتبة الخالدية (٩١).

كما شارك المثقفون من أهل القدس وبخاصة من المشتغلين بالطب والعلاج في الاهتمام بالمستوى الصحي للسكان، والمساهمة في الوقاية ووسائل العلاج لكثير من الأمراض التي كانت شائعة في القدس في ذلك العصر، مثل «الإسهال» و«السعال» و«أمراض الكلى» وغيرها، عن طريق تدوين كثير من الوصفات الطبية التي اعتمدت على الثوم، وصفار البيض، والتين، وزيت الزيتون، والصمغ العربي، والمسك، والكمون، وبعض الأعشاب الطبية المعروفة آنذاك، والطين الآرمني (٩٢).

كما لم يهمل مؤسسو المنشآت الدينية والثقافية والاجتماعية الرعاية الطبية للنازلين بها والقائمين عليها، نذكر من ذلك على سبيل المثال ما وجد في بعض هذه المؤسسات والكبيرة بوجه خاص، حيث كان يُخصص ناظر الوقف رجلين أحدهما عارف بالطب خبير بمعالجة الأبدان، والثاني عارف بصناعة الكحل «أي أمراض العيون»، على أن يحضر كل منهما كل يوم لمباشرة المرضى من النازلين بها، والقائمين عليها (٩٣). وكان هذا النظام المتبع في كل مكان وفي كل مدينة خضعت لسلطنة المماليك.

كذلك كانت بعض الحمامات العامة تستعمل كمنشآت صحية للعلاج من بعض الأمراض المختلفة، مثل «حمام الشفا» والذي كان يقع في داخل سوق القطانين بالقرب من الحرم القدسي الشريف وتستخدم فيه المياه المعدنية، وفي مثل هذا الحمام موظفون

مختصون بالمعالجة، وعمليات العلاج الطبيعي وما تتطلبه من مساج أو تدليك (٩٤).

الوضع الإداري :

وأخيراً يمكننا أخذ الوضع الإداري لبيت المقدس كدليل على عروبتها في ذلك العصر، وهو يوضح لنا بجلاء ارتباطها الشديد بعاصمة السلطنة في مصر وهي القاهرة فعقب موقعة عين جالوت ٦٥٨هـ - ١٢٦٠م ودخول بلاد الشام تحت سيطرة المماليك، فإنهم قسموها إلى ستة أقسام إدارية كبرى، أطلقوا على كل قسم منها نيابة وجمعها نيابات، وهي حسب ترتيب ظهورها كالآتي : نيابة دمشق، ونيابة حلب، ونيابة حماة، ونيابة الكرك والأردن، ونيابة صفد، ونيابة طرابلس. على رأس كل منها أمير كبير ينوب عن السلطان، وأكبرهم مقاماً هو نائب دمشق الذي عرفت نيابته باسم «نيابة الشام أو «مملكة الشام»، وكل نيابة من هذه النيابات انقسمت بدورها إلى عدة أقسام إدارية صغيرة، أطلق عليها اسم «ولايات» أو «نيابات صغار». وبالنسبة للقدس فإنها كانت ولاية صغيرة تابعة لنيابة دمشق، إلى أن تم تحويلها إلى نيابة مستقلة بذاتها عام ٧٧٧هـ - ١٣٧٥م في عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين.

هذا التحول يعكس أهميتها لدى سلاطين المماليك، حيث أصبح تعيين نائب القدس من قبل السلطان وحده بعد أن كان يتم تعيينه من قبل نائب دمشق، أضف إلى هذا أنه تم ربط المدينة بالعاصمة القاهرة بأبراج الحمام لسرعة توصيل أخبارها. والسبب في هذا التحويل راجع إلى ما شعر به سلاطين المماليك عقب طردهم الصليبيين من بلاد الشام من أن بيت المقدس لم تبرح تفكير كل رجل وامرأة في الغرب الأوروبي، بل إن الغرب الأوروبي كان لايفتأ يطالب صراحة وفي جرأة ببيت المقدس.

وقد مهد لهذا التحويل وساعد عليه حالة الأمن والاستقرار الذي نعمت به القدس في تلك الفترة، وأن يكون للمدينة نائب للسلطان مسئول أمامه عن أمن المدينة وسلامتها، وأن يكون التعيين فيها في الوظائف الدينية الكبرى من حق السلطان وحده نظراً لأهمية المدينة الدينية. ومما يؤثر عن سلاطين المماليك اهتمامهم بانتقاء الحكام والقضاة لبيت المقدس، ومراقبتهم، وحرصهم على تغيير هؤلاء الحكام في حالة عجزهم أو تعسفهم ضد الرعية، إلى جانب حرصهم على إبطال المظالم من المدينة الذي لم يختص به المسلمون وحدهم بل شمل إخوانهم من أبناء أهل الذمة كذلك.

وتم تقسيم الجهاز الإداري للمدينة وتقسيم موظفيها إلى ثلاثة أنواع هي : أرباب السيوف، وأرباب الأقلام، وأصحاب الوظائف الدينية. فمن أرباب السيوف كان الولي أو النائب، ثم والي أو نائب القلعة، ووالي المدينة، والحاجب، وكاشف بيت

المقدس، ثم ترجمان القدس. ومن أرباب الأقلام يأتي المحتسب، ووكيل بيت المال، ونقيب الأشراف، وناظر كنيسة القيامة؛ ومن أرباب الوظائف الدينية يأتي قضاة القضاة والقضاة، وناظر الحرمين الشريفين بالقدس؛ وخطيب بيت المقدس، وشيخ المدرسة الصلاحية، وشيخ الخانقاه الصلاحية، وأئمة المساجد، والمؤذنون، والمرقي الكبير، والموقت والمقرىء (٩٥).

هوامش البحث

1 - Runciman : A History of the Crusades, Cambridge, 1957 Vol. III, pp. 61-62. د. قاسم عبده قاسم، د. علي السيد علي : الأيوبيون والمماليك، ١٩٩٦م، ص٦٧.

٢ - القزويني : آثار البلاد وأخبار العباد، بيروت، ١٩٦٠م، ص١٦١؛ د. سعيد عاشور : «بعض أضواء جديدة على مدينة القدس في عهد المماليك، بحث مقدم للمؤتمر الدولي لتاريخ بلاد الشام، أبريل ١٩٨١م، ص٤-٥، د. علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي، القاهرة ١٩٨٦م، ص٢١-٢٣.

٣ - سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، حيدر آباد الدكن، ١٩٥١م، جـ٨، ص٢٥٤؛ د. رشاد الإمام : مدينة القدس في العصور الوسطى، تونس، ١٩٧٦م، ص١٢١؛ د. علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي، ص٦٨.

4 - Thomas Wright : Early Travels in Palestine, London, 1886, pp. 81-87; د. علي السيد علي، القدس، ص١٠٠.

٥ - د. سعيد عاشور : الناصر صلاح الدين، من سلسلة أعلام العرب، القاهرة، ١٩٦٥م، ص٢٨.

Conder : The Latin kingdom of Jerusalem, London, 1897, p. 223; Felix Felri : The Book of the Wandering of Brother Felix Fabri (Circa 1480-1483 A.D) Trans. by Aubrey Stewart, London 1892, Vol. I, p. 433; رنسيمان الحروب الصليبية، مترجم، جـ٢، ص٧٥٢.

6 - The Jewish Encyclopedia - Art Jerusalem, New York and London, M. D. CCCVI, Vol. VII, p. 132.

٧ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول، بيروت، ١٩٥٨م، ص١٥٠، Prawer : The Latin kingdom of Jerusalem, London, 1973, pp. 244-246.

8 - The Jewish Ency. Vol. VII, p. 132.

9 - Ibid; Vol. VII, p. 132.

١٠ - وليم فهمي : الهجرة اليهودية إلى فلسطين المحتلة من منشورات جامعة الدول العربية، ١٩٧١م، ص١٦؛ د. علي السيد علي : القدس، ص١٠١-١٠٢.

١١ - د. علي السيد علي : القدس، ص٢٥.

١٢ - مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل، القاهرة، ١٣٨٢هـ جـ٢، ص٥٩٧، ابن إياس : بدائع الزهور في وقائع الدهور، القاهرة، ١٩٦٠م، جـ٢، ص١٣، د. علي السيد علي، القدس، ص٦٩.

13 - Ashtor : A social and economic Hist. of the Near East in the Middle Ages, London, 1976, pp. 259-290;

د، علي السيد علي : القدس، ص٦٩.

١٤ - د. علي السيد علي : نفسه، ص٧٠. Ibid : pp. 290-297.

١٥ - لمزيد من التفاصيل عن هذه العناصر السكانية راجع : د. علي السيد علي : القدس، ص٧٣-٨٠.

١٦ - ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر بأبناء العمر، جـ١، ص٢٤٤-٥١٥، جـ٢، ص٢٢-٥٢٥.

١٧ - د. علي السيد علي : «وثائق الحرم القدسي الشريف وأهميتها في دراسة التاريخ الاجتماعي للقدس في العصر المملوكي»، مجلة التربية بدولة قطر، العدد ١٢٩، السنة الثامنة والعشرون، يونيو ١٩٩٩م، ص١٧٨-٢١٥.

١٨ - ابن حجر العسقلاني : إنباء الغمر، جـ١، ص٦٠-١٦٥؛ جـ٢، ص٢٢-٥٢٥.

١٩ - د. سعيد عاشور : «نعم - التاريخ مدرسة»، العرب وأوروبا عبر عصور التاريخ، حصاد (٧) ندوة عقدها اتحاد المؤرخين العرب بمقره في القاهرة، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م، ص١٨.

٢٠ - د. نقولا زيادة : رواد الشرق العربي في العصور الوسطى، بيت المقدس، ١٩٤٣م، ص٢١٠؛ د. علي السيد علي : القدس، ص١٠٥.

٢١ – د. أحمد دراج : المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، القاهرة، ١٩٦١م، ص٦٢-٦٣؛ د. علي السيد علي : القدس، ص١٠٦-١٠٧.

٢٢ – د. أحمد دراج : نفسه، ص١٠٧-١٠٨؛ د. علي السيد علي : نفسه، ص١٠٧.

٢٣ – القلقشندي : صبح الأعشى في صناعة الإنشا، جـ٤، ص٣٣؛ جـ١١، ص٣٨٥؛ المقريزي : السلوك في معرفة دول الملوك، جـ٢، ص٤٣٦-٩٢٤.

٢٤ – د. كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية تاريخية، عمان، ١٩٨٣م، جـ٢، ص٤٢-٤٤؛ د. علي السيد علي : وثائق الحرم القدسي الشريف، ص٢٠٢-٢٠٣.

٢٥ – د. محمد عيسى صالحية : وثائق الحرم القدسي الشريف المملوكية، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت – الحولية السادسة، ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م، ص٩٢-٩٥؛ د. علي السيد علي : وثائق الحرم القدسي الشريف، ص٢٠٣-٢٠٤.

٢٦ – د. محمد عيسى صالحية : نفسه، ص٧٧-٨٣؛ د. علي السيد علي، نفسه، ص٢٠٣.

٢٧ – د. علي السيد علي : القدس، ص١٠٣.

٢٨ – د. كامل جمبل العسلي : وثائق مقدسية، جـ١، ص٢٧٦-٢٧٨؛ د، علي السيد علي : وثائق الحرم القدسي الشريف وأهميتها، ص٢٠١-٢٠٢.

٢٩ – د. كامل جميل العسلي : نفسه، جـ٢، ص٣٣-٣٤؛ د. علي السيد علي : نفسه، ص٢٠٢.

٣٠ – د. كامل جميل العسلي : نفسه، جـ٢، ص٤٤؛ د. علي السيد علي : نفسه، ص٢٠٢.

٣١ – د. كامل جميل العسلي : جـ ، ص٩٢-٩٤.

٣٢ – د. كامل جميل العسلي : المرجع السابق : نفسه، جـ١، ص٢٤٨-٢٤٩؛ د. علي السيد علي : نفسه، ص٢٠٢.

٣٣ – د. كامل جميل العسلي : المرجع نفسه، جـ٢، ص٤٢.

٣٤ – د. محمد عيسى صالحية : المرجع نفسه، ص٩٢-٩٥؛ د. علي السيد علي : وثائق الحرم القدسي، ص٢٠٣.

٣٥ – د. كامل جميل العسلي : أجدادنا في ثرى بيت المقدس، المجتمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية، عمان، ١٩٨١م، ص٥٤-٥٥.

٣٦ – المرجع السابق : نفسه، ص٦٥-٧١.

٣٧ – المرجع السابق : نفسه، ص١٢٠–١٢٧.

٣٨ – المرجع نفسه : ص١٤٠–١٤٤.

٣٩ – المرجع نفسه : ص١٤٠–١٤٤.

٤٠ – د. علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي، ص٩.

٤١ – ابن حجر : إنباء الغمر، جـ١، ص٢٦١؛ د. كامل جميل العسلي : من آثارنا في بيت المقدس، عمان ١٩٨٢م، ص٤٣.

٤٢ – المرجع السابق : نفسه، ص٧٤–٧٧.

٤٣ – مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل، جـ١، ص٨٧، المرجع السابق : نفسه، ص٩٢–٩٤.

٤٤ – د. كامل جميل العسلي : نفسه، ص٤٤–٧٨.

٤٥ – المرجع السابق : نفسه، ص٥٧.

٤٦ – المرجع نفسه، ص٧٩.

٤٧ – المرجع السابق : نفسه، ص٩١.

٤٨ – المرجع السابق : نفسه، ص٤٢–٤٤.

٤٩ – المرجع السابق : نفسه، ص٥٧–٥٨.

٥٠ – د. اسحق عبيد : «شمس العرب تسطع على بالرمو»، مجلة اتحاد المؤرخين العرب، خصاد (٧) عام ١٩٩٩م، ص١٢٥.

٥١ – الأنس الجليل، جـ٢، ص٥٦١–٥٩٦.

٥٢ – لمزيد من المعلومات عن هذه الوثيقة راجع : د. عبداللطيف إبراهيم : وثيقة وقف السلطان قايتباي دراسة وتحليل المدرسة بالقدس والجامع بغزة، القاهرة ١٩٦١م، ويتفق ما جاء بهذه الوثيقة مع ما جاء بوثيقة وقف الأمير تنكز التي نشرها د. كامل جميل العسلي، في كتابه وثائق مقدسية تاريخية، جـ١، طبع عمان، ١٩٨٣م، ص١٠٨–١٢٠؛ د. علي السيد علي : القدس، ص١٥٢–١٥٥.

٥٣ – د. علي السيد علي : القدس، ص١٦١.

٥٤ – مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل، جـ٢، ص٥٠١–٥٠٣؛ د. علي السيد علي : نفسه، ص١٦٣.

٥٥ – المصدر السابق : نفسه، جـ٢، ص٣٩٠–٣٩٦؛ د. علي السيد علي : نفسه، ص١٦٤.

٥٦ – د. علي السيد علي : نفسه، ص١٦٤–١٦٥.

٥٧ – الخالدي «أحمد سامح» المعاهد المصرية في بيت المقدس، القدس، ١٩٤٦م، ص١٢.

٥٨ – الأنس الجليل، جـ٢، ص٤٦٤–٦٠٣.

٥٩ – د. عبدالحميد زايد : القدس الخالدة، طبع دار الكتب المصرية، ١٩٧٤م، ص٢٦٢؛ علي السيد علي : القدس، ص١٣٦–١٣٧.

60 - The city of Jerusalem, London, 1909, p. 272; A Description of the East. Vol. I, p. 7;

د. علي السيد علي : القدس، ص١٣٧.

٦١ – د. علي السيد علي : القدس، ص١٣٧.

٦٢ – ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة، جـ٧، ص٣٥٨؛ كحالة : معجم المؤلفين، جـ٥، ص٢٢٣.

٦٣ – ابن كثير «عماد الدين أبو الفدا اسماعيل، ت ٧٧٤هـ : البداية والنهاية في التاريخ، طبع مطبعة السعادة بالقاهرة، ١٩٣٩م، جـ١٣، ص٣٤١.

٦٤ – الخالدي : أهل العلم بين مصر وفلسطين، ص١٠–١١.

٦٥ – ابن الوردي «الشيخ زين الدين عمر» : تاريخ ابن الوردي، طبع النجف، ١٩٦٩م، جـ٢، ص٤٠٦.

٦٦ – مجير الدين : الأنس الجليل، جـ١، ص٤٨٠.

٦٧ – ابن حجر : الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد، ١٣٤٨هـ، جـ٣، ص٣٣١.

٦٨ – المقريزي : السلوك، جـ٣، قسم ١، ص٥٥؛ د. رشاد الإمام : مدينة القدس، ص٢١٤–٢١٥.

٦٩ – ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، نشر مكتبة القدسي بالقاهرة، ١٣٥١هـ، جـ٦، ص١٩٩–٢٠٠؛ البغدادي (اسماعيل باشا) : هدية العارفين، أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، استانبول، ٥١–١٩٥٥م، جـ٢، ص١٦٢؛ الزركلي (خير الدين) : الأعلام – قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، بيروت، ١٩٧٩م، جـ٧، ص١٠٧.

٧٠ – د. علي السيد علي : القدس، ص١٣١.

٧١ – ابن حجر : إنباء الغمر، جـ١، ص٥١٩.

٧٢ – البغدادي نفسه، جـ٢، ص١٢٠؛ اسماعيل باشا : إيضاح المكنون، جـ١، ص١٠–١٦٥؛ د. علي السيد علي : القدس، ص١٣٣.

٧٣ – كحالة : نفسه، جـ٥، ص٢٥٤، جـ٤، ص٢١٣.

٧٤ – مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٤٠ تصوف (طلعت)؛ د. علي السيد علي : القدس، ص١٣٧.

٧٥ – نظم العقيان، ص١٤٨؛ د. علي السيد علي : القدس، ص١٣٨.

٧٦ – د. علي السيد علي : القدس، ص١٤٠–١٤٧.

٧٧ – اسماعيل باشا : إيضاح المكنون، جـ١، ص٢٢؛ د. علي السيد علي : نفسه، ص١٥٠–١٥١.

٧٨ – الإمام محمد أبو زهرة : ابن تيمية؛ حياته وعصره، أراؤه وفقهه، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٧م، ص٤٩٥.

٧٩ – عارف باشا العارف : تاريخ القدس، دار المعارف بمصر، ١٩٥١م، ص١٧٦–١٧٧؛ د. علي السيد علي : القدس، ص٧٠.

٨٠ – د. علي السيد علي : «الرعاية الاجتماعية في مكة المكرمة في العصر المملوكي»، مجلة التاريخ والمستقبل، كلية الآداب بجامعة المنيا، يناير ١٩٩٦م، ص٢٠٠–٢١٦.

٨١ – عارف باشا العارف : نفسه، ص١٧٩؛ د. كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية، جـ١، ص١٠٥.

٨٢ – السلوك في معرفة دول الملوك، جـ٢، قسم ١، ص٣٠٢؛ د. رشاد الإمام : مدينة القدس، ص١٨٣.

٨٣ – مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل، جـ٢، ص٤٤٥.

٨٤ – د. كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية، جـ١، ص١٠٩–١١٠.

٨٥ – ابن كثير : البداية والنهاية، جـ١٤، ص١٣٣؛ د. رشاد الإمام : نفسه، ص١٨٤.

٨٦ – عارف باشا العارف : نفسه، ص١٨٠.

٨٧ – المرجع السابق : نفسه، ص٢٠٣؛ Murray : Syria and Palestine, London,

1858, Vol. I. p. 136.

٨٨ – ناصر خسرو علي : سفر نامه، نقله للعربية وقدم له؛ د. يحيى الخشاب، القاهرة، ١٩٤٥م، ص٢١.

٨٩ – ابن شداد : النوادر السلطانية، ص٢٤١؛ مجير الدين الحنبلي : الأنس الجليل، جـ١، ص٣٤٥، جـ٢، ص٥٨٩–٥٩٠.

٩٠ – د. كامل جميل العسلي : وثائق مقدسية، جـ١، ص٢٣٥؛ د. محمد عيسى صالحية : نفسه، ص١١٩.

٩١ – د. كامل جميل العسلي : نفسه، جـ١، ص٢٣٩.

٩٢ – المرجع السابق : نفسه، جـ٢، ص٢٧٩.

٩٣ – د. علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي، ص١٦٦، وما بها من مصادر ومراجع.

٩٤ – مؤلف مجهول : رحلة إلى فلسطين والقدس ونابلس وما في بلاد الشام، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم ٧٥٤ جغرافية، ورقة ٦٦؛ د، علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي، ص٢٤٥.

٩٥ – عن الوضع الإداري انظر : د. علي السيد علي : القدس في العصر المملوكي، ص٣٣–٥٦.

دعِ اللومَ في شيءٍ اذا جئتَ مثلَه   من الدهرِ يوماً كنتَ للنفسِ عاذِرا

لا تلم صاحبا على عمل ربما قمت أنت به، فاذا لم تلمه وفعلت ما يفعل عذرت نفسك.

[٣٩٩]

دعِ المقاديرَ تجري في أعِنَّتِها   ولا تبيتَنَّ إلاّ خاليَ البالِ

خلّ القدر يفعل ما يشاء ونم مستريح البال.

[٤٠٠]

دعامةُ العقلِ تمامُ الحِلمِ   رُبَّ أخٍ لي لم تَلِدْهُ أمّي

تمام الحلم في العقل، ورب أخ لك لم تلده أمك.